
سلسلة
الخيال
العلمي
٢٣
أنفاق
العوالم الأخرى
د. طالب عمران
دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
89
U

طالب عمران

- من مواليد دمشق ١٩٤٨
- دكتوراه في المنطويات التفاضلية والفلك من جامعة عليكرة الإسلامية بالهند.
- أستاذ في كلية الهندسة المدنية بجامعة دمشق
- عضو جمعية تاريخ العلوم عند العرب، ومركز الدراسات الفلكية (جامعة دمشق)، واتحاد الكتاب العرب، واتحاد الصحفيين العرب.

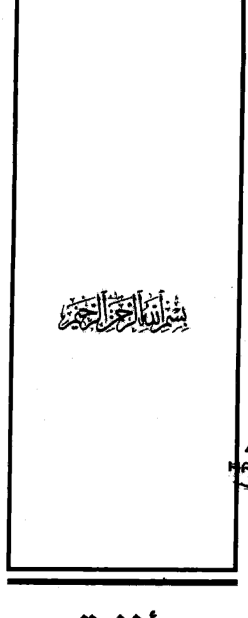
له:

- العالم من حولنا
- كوكب الأحلام
- العابرون خلف الشمس
- صوت من القاع
- نافذة على كوكب الحياة
- سلسلة روايات الخيال العلمي (دار الفكر)

منحة 2006

SIDA

السويد



أنفاق العوالم الأخرى

أنفاق العوالم الأخرى/ طالب عمـران.- دمشـق: دار الفكر، ٢٠٠٤.- ١٣٦ص؛ ٢٠سم.
(روايات من الخيال العلمي؛٢٣).
١-٨١٣,٠٨٨ ع م ر ح ٢-العنوان
٣-عمران ٤-السلسلة

روايات

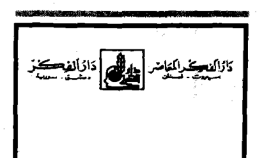
من الخيال العلمي

(٢٣)

الدكتور

طالب عمران

أنفاق العوالم الأخرى





الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٤٢,٢٣

الرقم الاصطلاحي للحلقة: ١٧٢٣,٠٣١

لرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-412-3

الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-59239-203-2

الرقم الموضوعي: ٨٥٠

الموضوع: القصة والرواية

السلسلة: روايات الخيال العلمي

العنوان: أنفاق العوالم الأخرى

التأليف: د. طالب عمران

الصف التصويري: دار الفكر — دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ١٣٦ صفحة

قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠سم

عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ — ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

e-mail: info@fikr.com

الطبعة الأولى

رجب ١٤٢٥هـ

آب (أغسطس) ٢٠٠٤م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المحتوى	٥
طيور في وسط النيران	٧
أنفاق العوالم الأخرى	٦٧
سر البيت المهجور	٩٣

طيور في وسط النيران

كان شاباً نشأ في بيئة صعبة، اغترب والده عنهم، هو وإخوته، وكانوا أطفالاً وأمه حط بها سقم مزمن، فألزمها الفراش وخرجت الابنة الكبرى من المدرسة، وتفرغت لرعاية إخوتها وأمها، وظل الأب يعيش بعيداً عنهم يرسل إليهم النزر القليل من المال، ثم انقطع عن إرسال المال فجأة متعللاً بأعذار ظهرت لهم أنه يتهرب من واجباته نحوهم.. وكثرت الإشاعات حوله أنه متزوج من أخرى، وأن زوجته المريضة لم تعد تليق بوضعه الاجتماعي، ومركزه الذي صنعه خلال سنوات من الجهد والعرق.. وهكذا انقطعت الصلة به لسنوات طويلة.

كان منير يعي كل هذه الحقائق، وحاول أن يترك الدراسة في المرحلة الثانوية، ولكن أخته رفضت ذلك، وأجبرته على متابعة الدراسة، وقد أخذت على عاتقها أن توصل إخوتها إلى بر الأمان، فعملت بالخياطة حتى أصبحت مشهورة في الحي، تتقاضى المبالغ من النسوة اللواتي كن يتسابقن لخياطة أحدث (الفساتين) والأثواب الأنيقة عندها.. كانت سميحة الأخت

الكبرى والأخت الوحيدة أيضاً بين أربعة شبان، وكان منير يشعر بالشفقة عليها وعلى وضعها الصعب، وكان يساعدها في أوقات الفراغ ما استطاع، ولم يكن إخوته الآخرون يقلون عنه حماسة لها ومحبة لشخصيتها الحنون المتفانية.

ومر الزمن وأصبح منير في الجامعة يدرس الطب، وأصبحت سميحة في الثالثة والعشرين من عمرها، وتقدم لخطبتها ابن خالتها الضابط في الجيش ورفضت، فإخوتها ما زالوا بحاجة إليها، وأمها شبه مقعدة تحتاج إليها أيضاً.. وأقسمت على ابن خالتها أن يبقي رفضها له سراً حتى لا يجبروها على فعل شيء لا تريده الآن وهو الزواج، فمنير لن يتركها تضيع هذه الفرصة مع حسن، الذي يحبه الجميع.. وفي أحد الأيام، وكان منير ينام في غرفة مستقلة في المدينة الجامعية، رأى حلماً غريباً... كان كمن يسير في طريق ضيق على سفح منحدر شاهق الارتفاع.. وكان هناك من يطارده، وهو يمشي محاولاً الإسراع حتى لا يلحق به المطاردون.

- آه... الهوة تفتر فاها لابتلاعي، وأولئك الأنذال يطاردونني..

سمع صوتاً يناديه: عجل يا منير، إنهم جزارون لا يرحمون أحداً..

- كأنني أسمع صوت سميحة.. سميحة أين أنت؟

- أنا معلقة على شجرة هنا على سفح المنحدر..

- لماذا لا أراك؟

رآها معلقة على شجرة عالية على سفح المنحدر

- اتركني يا منير لا وقت لديك، كادوا أن يلحقوا بك..

- لن أتركك أبداً، إنها شجرة شاهقة الارتفاع، نبتت ونمت أغصانها بطريقة غريبة على المنحدر..

- منير، كادوا أن يصلوا إليك

كان يفكر قلقاً: يجب أن أتسلق المنحدر وأصل إليها..

اندفعوا نحوه - إنه يريد تسلق المنحدر..

- رأى أخته معلقة على شجرة... فأحب أن يخلصها.. إنه مجنون..

- أسرعوا إليه، يجب ألا يصل إلى الشجرة...

كانوا يقتربون بجرأة غريبة على تسلق المنحدرات.. كأنهم قرود سريعة خفيفة تتشبث بأيديها وأرجلها..

- هيا، كدنا نصل إليه..

كانوا يصرخون ضاحكين:

لن تنجح في الوصول إليها.. سنحرق الشجرة الآن..

- أطلقوا السهام النارية صوب الشجرة، سنحرق الفتاة

وبدأت السهام النارية تنطلق في اتجاه الشجرة التي اشتعلت فيها النيران

- سميحة.. سميحة.. انتبهي يا أختاه...

وقف أحدهم أمامه متحدياً - تعال الآن أيها البطل، تريد الوصول إلى أختك، إنها تحترق..

- انظر يا سيدي، هناك طير كبير يقترب من الشجرة...

- غير معقول، إنه يتجه صوب الفتاة.. ويحملها..

- إنه يطير بها باقتدار مبتعداً عن الشجرة..

- أطلقوا خلفه السهام، يجب أن نصطاده..

- إنه يبتعد بها، لقد نجح في إنقاذها.. إنه يطير بها بعيداً

- كيف؟ غير معقول؟ كيف أتى ذلك الطير الضخم؟ ولماذا غامر بنفسه وسط النار لينقذها

- أحيطوا بالشاب وكتفوه.. سنأخذه إلى منصة الإعدام

كان يصرخ محاولاً الإفلات منهم:

- ما رأيك يا سيدي أن نحرقه حياً، لم ننجح في إحراق أخته، فنحرقه هو..

- لا بأس.. كتفوه جيداً، سنلتحق بالقافلة، وندخل المدينة قبل غروب الشمس..

- سيكون منظراً جميلاً، النار تلتهب، وهو وسطها ينشوي ويتفحم..

شعر بالخوف يحاصره، وهم يضعونه وسط كومة الحطب، ثم يشعلون النار وهم يضحكون.. شعر أنه يختنق، استيقظ مرعوباً، ومنظر ذلك الطير الضخم بلونه الحليبي يتراءى أمامه، وهو يرفع سميحة ويطير بها بعيداً.. شعر بقلق خفي.. وهو يتذكر كيف وضعوه وسط كومة الحطب وأحرقوه..

وفي أول عطلة له في الجامعة سافر منير إلى بلدته الصغيرة في المنطقة الوسطى.. كان يفكر وهو في طريقه بأن شيئاً حصل في المنزل، ولم يخبره أحد حتى لا يتعطل عن جامعته...

وعلى مشارف البلدة رأى تجمعاً ضخماً من أهالي القرية.. لم يدر كيف هبط من السيارة، وهو يعلق حقيبته الصغيرة في كتفه..

- لماذا يجتمعون في تلك البقعة؟ إنها ليست بعيدة عن بيتنا..

- يا جماعة.. لا تندفعوا بهذه القوة.. دعوا الطبيب يقوم بالعمل..

- ما الذي يجري؟ لماذا يجتمعون بهذه الكثافة؟

- إنه طير ضخم سقط من الجو بجناح مكسور، كأن صياداً أصابه..

- ماذا يا دكتور أسعد؟ هل إصابته كبيرة؟

- ضمدت له الجناح، يجب أن يلقى عناية خاصة حتى يبرأ من جرحه..

- وما الفائدة؟ رحل قطيعه نحو الجنوب، سيبقى وحيداً، وقد تقتله هذه الوحدة

- وماذا تقترح إذن؟ نتركه يموت هكذا؟

- الأفضل أن يعتني به أحد.. إنه طير ضخم، ليست العناية به بهذه السهولة..

فَكَّر منير «إنه يشبه ذلك الطير الذي رأيته في الحلم قبل أيام..».

- أعتقد أننا لو نذبحه ونوزع لحمه على الفقراء في بلدتنا يكون هذا أفضل:

- ماذا تقول يا رجل؟ لحمه ليس شهياً كما تظن.. إنه لحم قاس وليس سهل الهضم... إنه نوع من طيور (الحوم) وهي طيور تهاجر إلى الشمال صيفاً وإلى الجنوب شتاءً، تقطع آلاف الكيلومترات أحياناً لتصل إلى مواطن تزاوجها وتفريخها..

- إذن ما العمل يا دكتور؟

كانت سميحة بين أولئك الناس تراقب الطير

- رأت منيراً.. فاندفعت إليه - منير أخي أنت هنا؟

- سميحة، وصلت الآن.. رأيت تجمعاً هنا وخفت كثيراً.. رأيت حلماً مزعجاً قبل أيام..

- مسكين هذا الطير.. انظر إليه، إنه يتمايل متألماً ويرمق ما حوله بحزن شديد.. كأنه يفهم أنهم يقررون مصيره..

- معك حق.. هه كيف حال إخوتي؟

- بخير.. الحمد لله، أمي متعبة هذه الأيام، ليست حالتها على ما يرام، يا إلهي، أشعر بحزن شديد على هذا الطير، إنه وحيد، مصاب، قد يموت من القهر لرحيله عن قطيعه..

-بماذا تفكرين يا سميحة؟

- سنستضيفه عندنا... ما رأيك؟

- هذا الطير؟ تريدين العناية به؟

- إنه يتحرك منزعجاً من هذا الجمع..

قال رجل: ما رأيكم لو نجرب لحمه... لم أذق في حياتي لحم طير (الحومة)

قطعت الطريق عليهم: دكتور أسعد، سأنقله إلى بيتنا..

- أنت يا آنسة سميحة؟ يحتاج لعناية كبيرة..

- سأعتني به جيداً..

- قد نستطيع بذلك إنقاذ حياته؟

قال أحدهم بسخرية: هل حياته مهمة لهذه الدرجة

- لماذا ليست حياته مهمة؟ إنه حيوان غير مؤذ.. لم أعرف أن (حومة) سببت الأذى لبشري.. بالعكس فإن الصيادين هم الذين يؤذون الطيور..

- معك حق يا أستاذ منير.. هيا يا جماعة، ساعدونا في نقل هذا الطير إلى المنزل المجاور.. من الأفضل لو نضعه على لوح خشبي..

وأحضروا لوحاً خشبياً مددوا الطير الجريح فوقه.. همست سميحة إلى منير وهي تتأمل الطير فوق اللوح الخشبي وهم يدخلونه من الباب:

- أشعر أنني أنقذت (حياة) بهذا العمل..

- بارك الله بك يا أختاه..

ونقل الناس الطير الضخم إلى منزل منير، وأشرفت أخته سميحة على إفراد مكان له تحت أرض الدرج الخلفي.. كان مكاناً ملائماً تماماً، وشبه مستقل عن البيت..

ورأى إخوة سميحة بالطير تسلية ممتعة، كانوا يتسابقون لإطعامه والعناية به.. وكأن ذلك الكائن الغريب، كان يشعر أن سميحة هي من أنقذته..

فقد كان يرف بجناحه السليم، ويطلق أصواته المميزة، وهو يرمقها فرحاً حين تأتي وتطعمه أو تسقيه أو تغير له جرحه..

ولم يتوقف الدكتور أسعد -طبيب البلدة البيطري - عن المجيء إلى منزل سميحة، والاطمئنان بالطير، وإعطائه الدواء، والتأكد من أن العلاج يسير بصورة جيدة..

وتحادث منير مع سميحة بعد انتهاء عطلته..

- أنا مسافر غداً يا سميحة.. والطير تحسنت حالته ما الذي ستفعلينه حتى يبرأ تماماً من جرحه؟

- سيبقى عندنا، حتى تمر جماعته في رحلتها نحو الشمال.

-هذا يعني أنه قد يبقى حتى الربيع القادم.. يعني بعد شهرين؟

- وماذا في ذلك، إنه طير لطيف غير مزعج، وإخوتك تعلقوا به..

- أعلم يا أختاه.. ولكن قد يسبب لك وجوده بعض الإرباكات.. فعندما سيصبح في صحة جيدة، لن يبقى في مجال المنزل.. قد يطير بعيداً

- وأنا متأكدة أنه سيظل هنا، ولو طار لمسافة بعيدة، فسيظل في هذا المنزل حتى يمر أحد قطعان (الحوم).

- حسناً.. إن كانت هذه رغبتك.. فلا بأس.. أتعلمين يا سميحة؟ لقد رأيت حلماً غريباً قبل أسابيع، كأن جماعة من الناس يطاردونني ورأيتك معلقة في شجرة فوق سفح منحدر..

- هذا ما حلمت به؟ إنه لا يشكل شيئاً..

- لم أكمل الحلم بعد.. فقد كنت تصرخين بي أن أسرع، ولا أمكن من يطاردني من اللحاق بي.. ولكني لم أستطع أن أتركك معلقة هكذا بالشجرة، فأخذت أصعد نحو الشجرة محاولاً أن أخلصك، ولكن الأنذال الذين يطاردونني.. أطلقوا سهامهم المشتعلة صوب الشجرة، فاندلعت منها النيران..

- يا إلهي، إنه حلم مخيف...

- ووسط هذه النار الملتهبة، وأنت تحاولين الخلاص من لهيبها، انقض طير كبير الحجم نحو الشجرة، وتلقفك برجليه يرفعك ويطير بك بعيداً..

- ليس حلماً سيئاً..

- أتعلمين يا سميحة.. هذا الطير الذي تعتنين به الآن، يشبه إلى حد كبير ذلك الطير الذي أنقذك في الحلم

- الحمد لله، إنه فأل حسن.. لست أدري ما الذي دفعني لإنقاذه، وأنا أراقب نظراته الحزينة الكسيرة، كأنني شعرت أنه يشبه طفلاً شريداً فقد أهله، وأصبح بلا عائل يشكو اليتم والوحشة والعجز..

وجاء الدكتور أسعد يطمئن إلى حالة الطير:

- هه.. لم تسافر بعد يا منير؟

- سأسافر غداً يا دكتور أسعد..

- كيف حال مريضنا اليوم يا سميحة؟

- أعتقد أنه بخير يا دكتور..

هبط أسعد وسميحة ومعهما منير إلى بيت الدرج للاطمئنان إلى الطير الذي رفرف حين شاهد سميحة:

- فعلاً يبدو بحالة جيدة...

- سنزيل عنه الضماد اليوم؟

- لا.. ربما احتاج إلى يومين آخرين.. أما الجبس فيحتاج إلى أسبوع آخر، حتى نتأكد أن عظم جناحه المكسور قد عاد لطبيعته..

- أتعتقد أنه سيطير بالقوة نفسها من جديد؟

- بالتأكيد، فعنايتك به قد ساعدت كثيراً في التحام العظم

تماماً.. على كل حال قد نأخذه إلى المستوصف بعد أيام لنصور جناحه لنتأكد من أن كل شيء عاد إلى طبيعته

قال منير: قد يعذبك نقله يا سميحة.. ربما احتجت إلى مساعدة..

قال أسعد: لا تقلق، سأساعدها في ذلك، سأنقله بسيارة المستوصف..

- بارك الله فيك يا دكتور..

كان الطير يحاول إظهار حبه لسميحة:

قال أسعد: إنه يتمسح بك، يبدو أنه يحبك كثيراً...

- سبحان الله، إنه كائن ذكي، يشعر بالعاطفة... وينفعل لها...

- بالتأكيد، أنت من أنقذت حياته، وهو يشعر بذلك تماماً..

- ألا تعتقد يا دكتور أسعد.. أنه إذا عاد للطيران من جديد سيبتعد عن هنا ولن يعود بعد ذلك...

- ما دام بعيداً عن قطيعه، فلن يفكر حتى يحضر القطيع.. وأنا متأكد أنه قد يزوركم يوماً مع بعض أفراد قطيعه.. كنوع من عرفان الجميل...

- إذن قد يرحل الربيع القادم، إذا تمكن من الطيران جيداً...

- أعتقد أنه سيطير من جديد.. بالقوة نفسها، كبقية أقرانه..

وسافر منير إلى العاصمة، ونقلت سميحة بمعونة أسعد، الطير الضخم إلى المستوصف، حيث التقطت عدة صور بالأشعة لجناحه، وتأكد أسعد أن العظم قد التحم تماماً..

وأتى وقت تجريب الطيران، كان الطير الضخم الذي أطلق عليه أسعد اسم (بيرم) يحرك جناحيه مرفرفاً، وهو في الغرفة الصغيرة تحت الدرج الخلفي، دون أن يتسع له المجال للارتفاع..

وحين دفعه أسعد نحو باب الخروج، تحرك بثقل حتى خرج من المكان الذي أقام فيه قرابة الشهرين.. لحقت به سميحة وأسعد، وهما يحثانه على الطيران.

ولكن بيرم تحرك حركات مضحكة وهو يحاول أن ينشل نفسه مرتفعاً فوق الأرض دون أن يقوى على الطيران... رغم محاولاته العديدة..

- مسكين يبدو أنه فقد القدرة على الطيران..

- لا.. لم يفقد هذه القدرة، وإنما ثقل جسمه قليلاً، وهو يحتاج إلى أن يدرب جناحيه على الحركة المنتظمة، والارتفاع فوق الأرض.. ربما احتاج الأمر إلى بضعة أيام أخرى.. على كل حال، اتركيه في ساحة الدار يمرن جناحيه على الحركة..

- أتعتقد أنه سينجح في الطيران فيما بعد، يا دكتور أسعد؟

- بالتأكيد... أنا واثق من ذلك..

-يبدو كطفل صغير يتعلم المشي.. إنه يبذل جهده.. آه يا إلهي.. لا يبدو (بيرم) في حال حسن

أتى هادي أحد إخوتها يتأمل الطير

- مسكين.. إنه يحاول الطيران ولا يستطيع... لماذا لا نحمله إلى سطح البيت ونتركه يلقي نفسه من هذا الارتفاع معتمداً على جناحيه؟ إنه عمل يساعده كثيراً...

- ما رأيك يا دكتور أسعد بما يقوله هادي؟..

- لا داعي أن نتعبه اليوم، إنه أول خروج له بعد التئام كسوره وجروحه..

- ربما نجرب غداً، أو بعد غد.. المهم أن نساعده في الاعتماد على جناحيه، وإلقاء نفسه من مكان مرتفع..

- قد تكون محقاً يا هادي..

فكرت سميحة بحزن: مسكين يحتاج لأيام قبل أن يستقر وضعه النفسي أيضاً.

- إنه يحاول يائساً أن يرتفع فوق الأرض

- ولكنه لن ييأس، هذه المحاولات جزءٌ منه، جزء من مقاومته للموت..

- إنه ينظر نحونا بحزن، كأنه خجل من عجزه..

وفعلاً كان الطير يرمقهم بنظرات حزينة يائسة..

ومرت عدة أيام، وبمساعدة هادي الأخ التالي لمنير، تمكن (بيرم) من الطيران لمسافة معقولة والعودة إلى سطح البيت..

وقد اطمأنت سميحة إلى أن الطير سينجح مع مجيء الربيع في الالتحاق بقطيع (الحوم) الذي سيعبر في الاتجاه نحو الشمال..

وفي تلك الأيام، ومنير يعاني من الدراسة المتواصلة، وقد بدأ امتحان الفصل الأول، زاره حسن ابن خالته في المدينة الجامعية..

- لن أعطلك كثيراً يا منير.. أعلم أنك مشغول بالامتحانات..

- لا بأس يا حسن، تعلم كم أنا مشتاق لرؤيتك وقد ابتعدت عنا كثيراً..

- كنت في أقصى الشمال، وانتقلت بحكم عملي إلى أقصى الجنوب.. ثم إنني أفكر بالاستقرار جدياً الآن..

- تريد أن تتزوج؟

- نعم... وقد أقنعتني أمي بالتقدم لخطبة (فاطمة) ابنة (حامد الرحيل) جارنا.. أنا أعرفها منذ الطفولة وهي فتاة مؤدبة، وتحضر هذا العام لنيل الشهادة الثانوية

- فاطمة؟ إنها فعلاً فتاة مؤدبة، ستخطبها قريباً؟

- نعم.. في العطلة الانتصافية بعد أيام...

شرد حسن قليلاً وهو يفكر بسميحة..

- ما بك شردت؟..

- اسمع يا منير؟ أنت الأكبر بين أبناء خالتي، ويجب أن تعرف ما يجري حولكم..

- خير يا حسن؟

- القطعة المجاورة لأرضكم فيها أشجار متكاثفة، اعتبرتها الدولة منطقة محمية حتى لا يفكر أحد بقطع أشجارها.. وهي أيضاً مجاورة لأرض (الناظر)، بل ويعتبرها أبناء الناظر جزءاً من أرضهم..

- أعلم ذلك، هل أثاروا موضوعها معك هذه الأيام؟..

-نعم.. ويريدون مساعدتكم في أن تشهدوا لدى المحكمة أن منطقة الأشجار هي ملك لهم منذ زمن بعيد..

- يحاولون إثبات الملكية؟..

- نعم.. بأية طريقة، يريدون إزالة الأشجار، وزراعة الأرض بالخضراوات، وربما إقامة بيوت بلاستيكية مكانها...

- ولكن مساحة المنطقة المشجرة ليست صغيرة، أمعقول أن

يدفعهم الجشع لقطع تلك الأشجار التي يزيد عمر بعضها عن (٢٠٠) سنة؟

- هذا ما يحاولون عمله، ولكن قبل ذلك يحتاجون لإثبات الملكية..

- هل عرضت الأمر على سميحة؟..

- لا... فضلت أن أعرضه عليك أولاً.. أبناء الناظر ليسوا بحاجة لتعريف، إنهم عنيدون، بل قد يرتكبون أعمالاً غير شرعية للوصول إلى أهدافهم.

- أعلم ذلك.. ولكن هل ستسافر إلى البلدة قريباً؟..

- ربما بعد غد.. أنا أحضر للخطبة كما قلت لك..

- إذن لا بأس لو عرضت الأمر على سميحة ولها القرار.. هي أختنا الكبيرة، وتعرف ما يجب عمله..

- حسناً يا منير سأعرض الأمر على سميحة..

وسافر حسن إلى البلدة، وزار سميحة وإخوتها، وعرض عليها موضوع غابة الأشجار.. وقد رفضت أن تشهد هي أو أي من إخوتها، بأن الغابة ملكية قديمة لبيت (الناظر)... وعلى الرغم من أن حسناً حكى لها عن أبناء الناظر ورعونتهم وطيشهم.. ولكنها رفضت الموضوع برمته.

وبعد أيام أرسل أبناء الناظر (مختار) البلدة، في محاولة لإقناعها بالشهادة هي وإخوتها في المحكمة، وقدم لها عرضاً مادياً من أبناء الناظر مقابل شهادتها، ولكنها رفضت بإصرار وطلبت من المختار أن يبلغهم أن يعرضوا عليها مثل هذا الأمر مرة ثانية..

وفي العطلة الانتصافية حضر منير إلى البلدة ليقضي فيها بضعة أيام.. وشرحت له سميحة الوضع..

- تصور يا منير أرسلوا يعرضون علي مبلغاً من المال مقابل أن أشهد في المحكمة بملكيتهم لأرض الغابة..

- الأنذال؟ ولكن لماذا يصرون علينا؟ لماذا لا يبحثون عن شهود زور في مكان آخر؟

- لأن أرضنا تجاور الغابة وأرضهم تجاورها من الجهة الأخرى...

- لماذا لا ندعي نحن بملكيتنا لأرض الغابة؟ لماذا هم؟..

- يعلمون أن مثل هذه الادعاءات الكاذبة، لن نقوم بها أبداً..

- معك حق

وسمعا صوت الأم المنهك من المرض تنادي منيراً:

- أين أنت يا بني؟

- أنا قادم يا أماه..

همست سميحة أمي تعتقد أنك ستفيدها كثيراً، وستتحسن صحتها على يديك، وأنت في السنة الأولى من كلية الطب.. اذهب إليها وحاول مسايرتها...

وهرع إلى العجوز المريضة: خير يا أماه؟

- صدري يؤلمني، أشعر أنني لا أتنفس جيداً..

- سأعطيك الدواء الذي يخفف هذه الآلام.. دعيني أسمع صوت تنفسك بالسماعة..

- بارك الله فيك.. أنا متأكدة أنني سأتحسن، وستعالجني من مرضي، أنت ابني وقطعة مني، ستشعر بالمسؤولية تجاهي أكثر من أي طبيب..

- بالطبع يا أماه.. أنا متفائل أنك ستتحسنين..

- أنت يا آنسة نهلة؟ خير؟

- أريد أن أقابل (منير).. هل هو في البيت؟

- نعم... تفضلي..

وهرع هادي إلى منير يخبره: نهلة ابنة الناظر هنا، وترغب برؤيتك

- نهلة ابنة الناظر؟ لماذا لا تتقابل مع سميحة؟

- سألتني عنك، ولم تسألني عن سميحة..

كانت تنتظره في الصالة بكامل أناقتها..

- كيف حالك يا دكتور منير؟..

-ما زلت في سنتي الأولى أحتاج إلى سنوات حتى أتمكن من حمل هذا اللقب..

- لا بأس بأن نستبق الزمن ونطلق عليك هذا اللقب..

- كما تشائين.. هه خير؟ طلبت مقابلتي..

- أعلم أنك شاب شجاع ومنطقي، وأريد أن أوثق علاقتي بك.. ستكون نجماً يشع في سماء بلدتنا.. أتيت لأدعوك لتناول الغذاء معي.. في البيت الصيفي، سأكون وحدي في انتظارك..

فكر محتاراً: «ماذا تخطط هذه الصبية؟ ما الذي يدور في رأسها؟»..

قد تستغرب مجيئي إليك، ولكن تعلم كم أشعر بالود تجاهك، كنا صديقين في طفولتنا أتذكر يوم أوقعتني في بركة الوحل قرب الغابة.. كانت أياماً جميلة..

- فعلاً كانت أياماً جميلة..

- هه.. أنا ذاهبة.. سأنتظرك على الغذاء لا تتأخر..

فكر بعد ذهابها «كيف أتتها هذه المودة الفجائية.. لابد أنها

تريد أن تؤخر موضوع الشهادة في المحكمة علي.. إنها أساليب تقليدية يا آنسة نهلة».

وسأله هادي بفضول بعد رحيل نهلة..

- خير؟ ماذا كانت تريد منك..

- أتت لزيارتي وتذكيري بطفولتنا المشتركة..

- فقط.. أم إن هناك استلطافاً يا دكتور منير..

- أسمع رفيف أجنحة، هل عاد بيرم من جولته؟..

- نعم.. إنها جولته الصباحية..

- أريد أن أراه وأداعبه قليلاً.. تعال معي..

تفضل..

كان الطائر الضخم قد حط في باحة الدار بعد جولته الصباحية حول القرية.

احتار منير كثيراً في سبب دعوة نهلة إياه.. وبرغم أنها فتاة جميلة، أنيقة، يتسابق شبان البلدة لخطبة يدها، فلم يندفع كثيراً في اتجاه المغامرة بعلاقة مع فتاة مثلها، وهو الشاب الذي لم ينبض قلبه بالحب بعد..

لم يحك لسميحة عن سبب زيارتها، وقد خمنت سميحة أنه (جس نبض) لمعرفة إمكانية استعداده للشهادة...

ولكنه أكد لها أن نهلة لم تعرض هذا الموضوع أبداً.. وحوالي الظهر، خرج من البيت متعللاً ببعض الأشغال، ودار عدة دورات حول البلدة، قبل أن يتجه نحو بيت (الناظر) المنعزل الذي تنتظره فيه نهلة..

تردد كثيراً في طرق باب البيت.. لم ير أحداً في الطريق، ولم تصدر عن البيت أية أصوات توحي أن هناك أناساً في داخله.. ووسط تردده وحيرته انفتح الباب لتطل منه امرأة متوسطة العمر..

- دكتور منير، سيدتي نهلة في الداخل تنتظرك..

وأطلت عليه نهلة بكامل أناقتها:

- تأخرت يا منير.. برد الطعام قليلاً..

سألتها المرأة:

- هل أرتب السفرة يا سيدتي؟

- نعم بسرعة..

- تعمل عندكم؟ يبدو أن لديكم الكثير من الخدم؟..

- عوّدنا والدي ذلك، تعلم أن جدي كان (آغا) يملك آلاف الدونمات في المنطقة.. ما زال الفلاحون يهابون اسمه..

- صحيح.. معك حق..

- اسمع يا منير، لم أحضرك إلى هنا لسبب سوى أن نوثق علاقتنا من جديد، وكنا في مرحلة طفولة واحدة.. لا يتسرب إليك الشك أنني أحضرتك لغير هذا السبب، أعلم أن إخوتي يحاولون إقناع أخوتك بالشهادة لإثبات ملكية أرض الغابة.. ولكن هذا الأمر لا يعنيني..

ويبدو أن السفرة كانت جاهزة سوى بعض اللمسات، فلقد عادت المرأة بسرعة:

- أتريدين شيئاً آخر يا سيدتي؟

- انتظري خارج البيت، ونبهيني إن اقترب من بيتنا أحد..

- سأفعل يا سيدتي..

خرجت المرأة، أمسكت نهلة بيد منير المرتعشة:

- تفضل الطعام جاهز..

شعر منير أن نهلة فتاة مسكينة تفتقد الصداقة، وقد عزلها إخوتها عن الاختلاط بفتيات البلدة.. وبكت كثيراً وهي تحكي له عن عناد إخوتها، وقسوتهم عليها..

وخرج منير بعد ساعتين وهو يشعر أنه مدله بحب الصبية، وأنه لن يصبر كثيراً على فراقها.. وتكررت لقاءاتهما المنعزلة.. وسافر منير إلى العاصمة وقد ترك قلبه بين يدي نهلة ابنة الناظر..

ولم يدر أن سميحة كانت تراقبه، وتراقب ما يفعله، وأنها حزنت كثيراً لرؤيته وهو يقع بسهولة في تجربة عاطفية مع نهلة ابنة العائلة التي لا يحبها أهل البلدة..

ولكنها صمتت عن التعليق ومفاتحته بالموضوع.. وظلت وإخوتها على موقفهم من قضية أرض الغابة...

وزارتها فاطمة ابنة (حامد الرحيل) تخبرها عن موعد خطبتها لحسن، وهي سعيدة وفرحة...

- أنت تعرفين حسن ابن خالتك، يبدو أنه يحبني منذ زمن طويل دون أن أعرف بهذا الحب..

- حسن شاب ممتاز وقد اختار الفتاة المناسبة له.. حاولي أن تسعديه يا فاطمة..

ورفرف بيرم في الخارج يحوم فوق باحة الدار، سألتها فاطمة:

- أما زال ذلك الطائر الغريب يتردد عليكم؟

- إنه جزء من البيت، تعلقنا به كثيراً..

- ولكنه ضخم الحجم، يطلق أصواتاً أشبه بأصوات الإوز... الناس في بلدتنا يخافونه..

- لا.. ليس إلى هذه الدرجة، على كل حال سيغادرنا قريباً،

قطعان (الحوم) بدأت تتوافد متجهة نحو الشمال، وصل إليها صوت أسعد من الخارج - أصبحت تطير جيداً يا بيرم.. لن يطول بك المقام هنا.

قالت لفاطمة موضحة: إنه الدكتور أسعد يطمئن على (بيرم)

- ذلك الطبيب البيطري؟

- إنه طبيب ممتاز يا فاطمة..

- طبيب حيوانات؟ ليس طبيباً بشرياً مثل منير..

- الطبيب البيطري مهمته أصعب من الطبيب البشري، إنه يحتاج إلى جهد إضافي لمعرفة نوعية المرض الذي يصاب به الحيوان..

وقرع الدكتور أسعد الباب ففتحت له

- أهلاً دكتور أسعد.. فاطمة خطيبة حسن المقبلة..

- أهلاً وسهلاً.. (بيرم) بحالة ممتازة يا سميحة..

- الفضل يعود لعنايتك به..

وازدادت علاقة منير ونهلة وقد بدأت الرسائل تكثر بينهما.. وأخذت طيور الحوم تظهر بجماعات فوق المنطقة متجهة نحو الشمال.. وأخذ بيرم ينشط وهو يطير ويحوم ويراقب السماء، وعرفت سميحة أن بيرم سيرحل قريباً

وفي أحد الأيام، أيقظ (هادي) سميحة عند الفجر..

- تعالي انظري إلى (بيرم) يا سميحة، إنه يقوم بحركات مضطربة، وهو يطير ثم يعود بسرعة..

- حانت لحظة رحيله يا هادي، لحظات وألحق بك

كانت الطيور تتجمع في السماء بأعداد كبيرة، إنها جزء من القطيع الذي سيرافقه بيرم..

صرخت تشجعه..

- هيا يا بيرم، اِلحق برفاقك

أطلق بيرم صراخاً حزيناً، قال هادي:

- سميحة إنه يبكي، إنه يحتك بي بحنان..

- قضى معنا وقتاً طويلاً.. اعتاد علينا...

صرخت به من جديد: هيا يا بيرم، ارتفع، ارتفع، انطلق نحو رفاقك.. لا تتردد..

- إنه حزين...

- ولكن يجب أن يغادرنا إلى أهله وجماعته

هيا يا بيرم بسرعة.. هيا..

وأخيراً ارتفع الطير محوّماً بتردد

- إنه يطير كأنه يودعنا.. إنه يرتفع

شهقت تبكي: في حفظ الله يا بيرم...

- لا تبكي يا أختاه..

- اعتدنا عليه.. كان لطيفاً، كأنه يفهم علاقتنا به

حلق عالياً منضماً إلى قطيع الطيور..

همهم هادي:

- من يدري ربما عاد يوماً لزيارتنا..

- معك حق يا هادي..

وحضر الدكتور أسعد كأنه توقع بحسه الغريزي رحيل بيرم..

- ذهب بيرم إذن؟ رأيت انطلاقته السريعة نحو الجو..

نعم يا دكتور أسعد، ذهب يلتحق بقطيعه.. تفضل اشرب القهوة..

- قهوة الصباح؟.. نعم.. أشاركك..

ولم تتوقف محاولات أبناء الناظر في إقناع سميحة وإخوتها بالحضور إلى المحكمة، والإدلاء بالشهادة أن أرض الغابة تعود ملكيتها إليهم.. ورغم ذلك ظلّت مصرّة على موقفها، وفي أحد الأيام طرقت عليها نهلة الباب..

- أهلاً بالآنسة نهلة، خير؟

- ألا تدعينني للدخول يا سميحة؟ نحن على وئام كما أعتقد..

- تفضلي.. أهلاً وسهلاً..

- أعلم أنني مقصرة بحقك، فأنت ذات فضلٍ كبيرٍ على إخوتك.. حكى لي منير الكثير عنك..

- منير أخي.. يبدو أنك على علاقة وطيدة به..

- نعم.. الرسائل بيننا لا تنقطع..

- تتراسلان أيضاً.. عظيم

- إنه شابٌ ممتاز، له مستقبلٌ مشرقٌ إن شاء الله...

- ولكنه قد لا يليق بابنة الناظر سليلة أسرة معروفة من الإقطاعيين..

-بالعكس، نحن نحبّ بعضنا بعضاً، وسنتزوج في المستقبل القريب، وربما قبل أن يكمل دراسته..

- تتزوجان؟ لم يبلغني منير بكل هذه المعلومات، يبدو أنني لا أعرف شيئاً عنه..

- أترفضين مثل هذا الزواج؟ إنه في مصلحة أخيك..

قالت ساخرة:

- بالطبع، نحن أسرة فقيرة، وأنتم ستفرشون له الأرض بالذهب..

لم تكترث نهلة لسخريتها:

- وعدني أخي (ممتاز) أن يبني لي بيتاً كبيراً، أنا ومنير، حين تثبت ملكيته لأرض الغابة.. إنها ذات أشجار قديمة منخورة الجذوع.. يجب إزالتها..

- بشرط أن يشهد منير، وأنا وإخوتي معه على ملكيتكم لأرض الغابة..

- لا.. لا داعي لشهادتك وإخوتك.. سيدبر ممتاز الموضوع دون الحاجة إليكم...

- حسناً.. نسيت أن أسألك هل تشربين الشاي أم القهوة؟

- لا.. لا داعي لذلك، يجب أن أذهب، تأخرت.. جئت لأسلم عليك، يجب أن أوثق علاقتي بك.. لقد طلب مني منير ذلك.. سنصبحُ عائلة واحدة في المستقبل..

قالت بمرارة: نعم.. نعم.. سنتشرف بمناسبتكم..

ودخل هادي إلى المنزل:

أحضرت البذار يا سميحة.. هه لدينا ضيفة.. الآنسة نهلة الناظر بنفسها؟

- ستصبح خطيبة أخيك منير قريباً..

قالت نهلة مبتسمة: أهلاً بك يا هادي.. هه.. بإذنك يا سميحة.

- مع السلامة..

همهمت بعد خروجه متألمة:

- سامح الله منير، يبدو أنه سيسبب لنا مشكلة..

- أمعقول أن يتورط في علاقة معها؟

- لا أدري يا هادي.. على كل حال، الامتحان على الأبواب، ولا أريد أن أزعجه حالياً.. بمثل هذه الموضوعات

- معك حق يا أختاه..

كانت رسائل نهلة إلى منير متواصلة وكان يجيب عن بعضها، وهو يحاول ألا يعطله التفكير فيها عن دراسته.. كانت نهلة قد أقنعته أنها من طبيعة مختلفة عن إخوتها...

فهي محاصرة بالعادات والتقاليد، وغيرة إخوتها عليها، وهي أحياناً لا تغادر البيت خوفاً من إخوتها..

وفي أحد الأيام، وكان منير يستعد للامتحان زاره حسن ابن خالته، في المدينة الجامعية، حيث جلسا يتحدثان في صالة الاستقبال، تنهد حسن وهو يهز رأسه منزعجاً:

- أبناء الناظر يلحّون عليّ لأتدخل وأقنع سميحة بالشهادة لمصلحتهم.. وقد لوّح (ممتاز) مهدداً أنه يقلب البلدة رأساً على عقب ضد سميحة إذا لم ترضخ له وتذهب إلى المحكمة..

- ماذا تقول؟ إلى هذه الدرجة؟

- نعم.. ويبدو أن (ممتازاً) وإخوته الآن.. قد انتقلوا إلى خوض المعركة مباشرة لإثبات ملكيتهم أرض الغابة...

- يجب أن أوقفهم عند حدّهم.. لماذا يطلقون تهديداتهم ضد سميحة هكذا؟

- لا تتورط في هذه القضية الآن.. لديك امتحان هام بعد يومين، وسيطول لفترة الشهر، يجب أن تجتازه بتفوق..

- معك حق كيف حال فاطمة؟

- إنها بخير، تحاول إسعادي، فاطمة فتاة بسيطة، وأعتقد أنها ستكون زوجة مريحة، هذا ما يبدو لي لأول وهلة ونحن نعيش معاً منذ شهرين..

- أتمنى لك التوفيق يا حسن..

وأتى مستخدم المدينة الجامعية إليهما، وتوجه نحو منير:

- هناك فتاة في الخارج تقول إنها قريبتك.. تريد أن تراك... هل أدخلها إلى هنا.. أم تخرج أنت إليها

- فتاة؟ لا بأس دعها تدخل إلى هنا..

- حسناً..

فكّر منزعجاً: من التي تزورني في هذا الوقت؟ سميحة أختي؟ معقول؟

وفوجئ بنهلة الأنيقة الجميلة تدخل عليهما

- نهلة؟ أنت؟ كيف حضرت إلى هنا..

- اشتقت إليك يا منير، أقنعت ممتاز باصطحابي إلى هنا، إنه يشتري بعض الأشياء الضرورية من العاصمة

عرفها بحسن: إنه حسن ابن خالتي.. نهلة الناظر يا حسن...

- أعرفها جيداً... تشرفنا.. سأذهب الآن يا منير أتريد شيئاً..

- لا.. شكراً لك.. مع السلامة..

وبعد ذهاب حسن، ومنير يشعر بالإحراج همست نهلة:

- اشتقت إليك يا حبيبي

- نحن في صالة الضيافة، قد يدخل علينا أحد

- إذن خذني في نزهة إلى أحد الأمكنة الجميلة في العاصمة..

- وممتاز؟ قد يقلق عليك؟

- أخبرته أنني سأقضي اليوم مع إحدى صديقاتي هنا.. في المدينة الجامعية..

- لا بأس إذن، جاهزة للحركة الآن؟

- بالطبع.. تفضل..

لم يرتح حسن لزيارة نهلة لمنير وقد لحظ بعينيه مدى اهتمام ابن خالته بها، وتأكد له أنهما عاشقان.. ولم يكن مطمئناً إلى نية نهلة تجاه منير، فمن الصعب الاقتناع بأن وراء هذا الاهتمام بمنير، يكمن الحبّ فقط...

استعاد ما قاله ممتاز من كلام مبطّن يحمل نغمة التهديد لسميحة وإخوتها.. وأيقن أن نهلة تدخل اللعبة في محاولة للسيطرة على منير وإضعاف سميحة..

أما نهلة ومنير فكانا يقضيان وقتاً ممتعاً في إحدى حدائق العاصمة..

- أنا سعيدة جداً يا منير..

- وأنا أيضاً يا نهلة.. أعدّ الأيام الكثيرة جدّاً التي تفصلني عن اللقاء معك

- تستطيع أن تجعلها قليلة..

- كيف؟ لا أستطيع الزواج الآن، وأنا ما أزال طالباً.. أتلقى مصروفي من أختي الكبرى

- اسمع يا حبيبي، سيشتري لنا ممتاز أخي بيتاً هنا، سنعيش

فيه حتى تتخرج وتصبح طبيباً، وسأشتري لك عيادة في البلدة تليق بك، سأجهزها وأفرشها بالأثاث.. منذ الآن إن أحببت..

- ألهذه الدرجة أنت متعلقة بي؟

- أنت حياتي يا منير.. لا أستطيع أن أحيا بدونك..

- هيا نتناول الغذاء في مطعم قريب من هنا..

- تحت أمرك يا حبيبي

وزار حسن بيت خالته في القرية ليصارح سميحة بما يجري:

- كيف حالك يا سميحة..

- لماذا لم تحضر فاطمة معك؟ سمعت أنها حامل..

- نعم، ويجب أن تبقى مرتاحة بعض الوقت في بيت أهلها.. كنت تبكين يا سميحة؟

- بعض المنغصات غير المتوقعة..

أعطته ورقة بدت له رسالة قرأها بسرعة:

- منير.. يطلب المال..

- يقول إن كتب الطبّ غالية وهو بحاجة إلى مراجع باستمرار.. وقد استدان مبلغاً محترماً من رفاقه، إنه يطلب المال بخجل.. ولكن قدرتي على إرسال المزيد قاصرة..

- يبدو أن ابنة الناظر قد كلفته الكثير...

- ماذا تعني يا حسن؟

- كنت أزوره الأسبوع الماضي، ورأيت (نهلة الناظر) تدخل عليه، بدا لي أنهما عاشقان..

- ذهبت إلى العاصمة للقائه؟ ثمة أمر يدور في الخفاء يا حسن.. لم يعد منير الأمل الذي كنت أتكئ عليه في مساعدة إخوته..

- اسمعي يا سميحة، منير يمر بمرحلة حرجة.. وسيأتي في العطلة الصيفية إلى هنا، الأفضل أن تصارحيه بكل شيء، إن رغبت سأكون موجوداً في ذلك الوقت..

أخذت تكفكف دموعها: لابدّ أن أفعل ذلك.. حتى لا يضيّع أبناء الناظر، حياة أخي..

- اهدئي قليلاً.. وحدثيني عن آخر أخبارك معهم.. سمعت أن (ممتازاً) حضر إلى هنا، وهدّدك؟

- حاول أن يخرج عن طوره، فطرده هادي

- هادي؟ عظيم... مازلت تملكين الخيوط يا ابنة خالتي.. أصبح هادي رجلاً يمكن الاتكال عليه..

- ولكن (منير) طيّب.. وأنا متأكدة أنه وقع في أول تجربة

عاطفية... يجب أن أساعده.. يجب أن يكون إخوتي جميعهم يداً واحدة في مواجهة المشاكل..

- معك حق..

- سأعد القهوة.. دقائق وأعود..

فكر بمرارة بعد دخولها:

- مسكينة سميحة، إنها تكافح التخريب في بيتها، التخريب الذي يصنعه أبناء الناظر، باختراقهم لتماسك الأسرة.. سامحك الله يا منير

ويبدو أن قضية أرض الغابة بدأت تتفاعل.. وقد تقدم شهود كثيرون للمحكمة... يشهدون لصالح أبناء الناظر..

ولم تقف سميحة صامتة، فلقد تقدمت إلى المحكمة باعتراض يؤكد أنه إذا كانت أرض الغابة ملكاً لأبناء الناظر.. فلها النصف..

واستعدت لحلف اليمين هي وإخوتها.. ولم يكن منير قد حضر بعد من العاصمة.. رغم أنه أنهى امتحاناته.. وقبل جلسة (حلف اليمين) بيوم واحد.. فوجئت سميحة بمنير يدخل عليها ومعه حقيبته بعد منتصف الليل بقليل..

- لماذا جئت في هذا الوقت.. تعلم أني أكره أن تسافر في الليل، السفر في الليل غير مستحب.. هكذا تقول أمي

- جئت مسرعاً، وأنا خائف أن تدفعك كراهيتك لبيت الناظر إلى فعل ما لا يرضي الله

- تقصد اليمين التي سأقسمها غداً؟ أنا لا أكذب

- ماذا تقصدين؟

- إذا كانت أرض الغابة من ممتلكات بيت الناظر.. فلنا نصفها..

- أرجوك يا سميحة ابتعدي عن هذا الموضوع، إنهم أقوياء، ويستطيعون تدميرنا.. ثم إنني لا أرغب أن تستمر الكراهية بيننا..

- أقنعتك نهلة بالوقوف إلى جانبها؟ هه.. أنت تفعل ذلك يا منير؟

- ماذا تقولين؟ لم تحكِ نهلة شيئاً عن كل هذه الموضوعات، لا علاقة لها بما يفعله إخوتها..

- تريدني ألا أذهب للمحكمة غداً؟

- نعم يا أختاه.. إنه تصرف يرضي الله..

ودخل هادي وفوجئ بمنير:

- منير أنت هنا؟ كيف حالك؟

- بخير يا هادي.. وأنت؟ قدمت امتحانات موفقة؟

- نعم ونجحت بتفوق، في العام القادم سأخوض معركة الشهادة الثانوية..

قالت سميحة بثقة: إن شاء الله ستتفوق أيضاً..

قال هادي بحنان وهو يشد على يدها:

- أنت عظيمة يا أختاه، وسيغمرنا فضلك طوال الحياة.

ثم نظر إلى منير هازاً رأسه:

- يجب أن ينضم منير إليك غداً، في (حلف اليمين) أمام القاضي..

- ماذا تقول يا هادي؟ أنا لن أدعها تذهب.. الكذب ليس من عادتنا..

صرخت سميحة:

- ولكني لا أكذب يا منير، فإذا كانت أرض الغابة ملكاً لأبناء الناظر، فلنا نصفها.. وسأقسم على ذلك، إنه قسم يرتبط بمقولة أن أبناء الناظر لا يملكون فعلاً تلك الأرض، وهم يكذبون بادعائهم وقدموا شهود زور عديدين..

- أرجوك يا سميحة.. لا داعي لأن نعقد الأمور بيننا وبينهم

قال هادي:

- إنهم أنذال يا منير، وقد أرسلوا يهددون سميحة أكثر من مرة.. يريدون إجبارها على الشهادة لصالحهم..

- من الأفضل أن نبتعد عن هذا الموضوع.. ما دخلنا بأولاد الناظر؟

- إن أثبتوا ملكية أرض الغابة سيقتلعون أشجارها، ويزرعونها، وربما ملؤوها بالبيوت البلاستيكية، مساحة الغابة مساحة كبيرة تزيد عن (٤٠) دونماً

- ليفعلوا بها ما يشاؤون لا دخل لنا بها..

أوقفته سميحة بنظراتها الصارمة:

- اسمع يا منير، كنت أعتقد أنك ستكون ملجئي وملاذي وأنت كبير البيت وسنده.. على كل حال إن بقي فيك بعض الاحترام لي، اتركني أفعل ما أراه الصواب، ولن ندخلك معنا في موضوعاتنا الشائكة بعد اليوم

- ولكن؟

- أرجوك يا منير، لابدّ أنك جائع سأعد لك الطعام..

ولجت داخل البيت متألمة.. ورمق هادي أخاه بانزعاج:

- لماذا أزعجتها يا أخي.. سميحة حساسة جداً...

- ولكن ما تفعله ليس هو الصواب، لماذا نتصدى بهذه القوة ضد أبناء الناظر.. إنهم أحفاد أسرة كانت تملك الكثير من

الأراضي هنا، وأجدادهم كانوا يتحكمون برقاب الناس، لا نستطيع أن ننكر ذلك

- ويحاولون إعادة سطوتهم ونفوذهم وتوسيع أراضيهم التي وزعها الإصلاح الزراعي في الستينيات على الفلاحين

- لماذا نتعامل معهم بهذه الطريقة؟ مالنا ولهم؟ ليسوا أعداءنا...

- يبدو أن نهلة أثرت عليك كثيراً

انتفض منير غاضباً: اخرس ولا تتدخل فيما لا يعنيك، ولا تذكر اسمها على لسانك مرة أخرى

أرخى هادي رأسه: أنا آسف...

خرج منير وقد أغلق الباب بعنف، وأتت سميحة على الصوت وفهمت ما جرى

- يبدو أنني سأخوض معركة كبيرة.. يا هادي

ضمته بحنان والشرر ينطلق من عينيها..

وفي ذلك الوقت من الليل، كان ممتاز الناظر يجتمع مع رجاله ويتشاورون في الطريقة التي يمنعون بها سميحة من الحضور إلى المحكمة وحلف اليمين..

كان اجتماعاً حاسماً، جرى فيه حوار ساخنٌ بين ممتاز ورجاله:

- إنها الطريقة المثلى يا سيدي.. يجب أن نعطلها عن الذهاب غداً إلى المحكمة..

- بخطفها خلال مدّة المحكمة ثم إطلاقها بعد فترة.. إنه ليس حلاً مناسباً

- يجب أن نسكتها، ونمنعها من التفكير بالوقوف ضدكم يا سيدي..

- وكيف؟ عرضنا عليها المال، لم نترك رجلاً محترماً في البلدة إلاّ أرسلناه إليها يتوسط لنا عندها بلا فائدة..

دخلت نهلة إليهم: مازلتم مجتمعين؟ ألم تتوصلوا إلى قرار بعد؟

- يبدو أن خطتك في التأثير على منير واختراق بيت سميحة لم تنجح بعد..

- ستنجح.. سيأتي منير للقائي في الثانية عشرة والنصف هذه الليلة.. وقد أكدّ لي أنه سيحمل خبراً مريحاً

- إن شاء الله.. على كل حال، لن ننتظر حتى يحضر، يجب أن نفكر بخطّة، سننفذها احتياطاً، إذا لم تنجح مساعي منير.. رجالي مستعدون لذلك..

قال أحدهم مؤكداً: ولو احتاج الأمر إلى قتلها.. نحن طوع أمرك..

سألها: هل ستشاركين في اجتماعنا يا نهلة؟

- لا.. أنا ذاهبة للقاء منير...

خرجت نهلة وأغلقت الباب خلفها بهدوء، أكد ممتاز لرجاله:

- سنبحث في كافة الاحتمالات الممكنة لإخراجها كليّاً من هذه المسألة، إنها تعطل علينا مشروعاتنا تلك الفتاة الشرسة..

أجابه الجميع: نحن طوع أمرك يا سيّدي..

* * *

وفي تلك الليلة: أتسمع يا هادي.. كأنها أصوات حركة طيور..

_ نعم.. أمر غريب.. خرج غريب قبل دقائق، قال إنه ذهب ليتمشى قليلاً ولن يتأخر..

- في هذه الساعة المتأخرة؟ هل لديه مفتاح؟

- نعم وقد قال لي.. لا ترتجوا الباب من الداخل.. مسكين منير يبدو أنها عملية غسل دماغه تسير سيراً حسناً عند ابنة الناظر...

- إنه يحبها يا هادي، وهي أول تجربة له، وهي خبيثة لها ملمس الأفعى..

- قد نفقده يا سميحة؟

- أرجو أن يعود إلى رشده في اللحظة الأخيرة..

وصرخت الأم بصوتها المتعب: سميحة أنا متعبة.. أحضري لي الدواء

- أنا قادمة يا أماه

سألتها العجوز: سمعت صوت منير.. متى جاء؟ لم أره؟

- ربما رآك نائمة فلم يرغب بإزعاجك

- دخل إلى غرفته لينام؟

- ليس بعد.. إنه يتمشى في الخارج سيعود سريعاً، سأطلب منه المجيء إلى غرفتك..

- منذ زمن لم أره.. اشتقت إليه، إنه عمود البيت الآن.. سيكشف عليّ، أنا لا أطمئن إلا إليه، إنه ابني قطعة مني..

- اشربي الدواء يا أماه..

وارتفعت خفقات أجنحة سمعت واضحة في سكون الليل، علقت الأم:

- كأن هناك طيوراً في الخارج.. تذكرت ذلك الطير الضخم (بيرم) كان يؤانس وحشتنا في الليل، ونحن على أطراف البلدة..

* * *

وفي تلك الأثناء كانت نهلة تؤنب منيراً بلطف:

- معقول يا منير؟ لم تستطع أن تقنِعَها؟ ستؤذينا شهادتها غداً

- إنها عنيدة، وسأحاول في الصباح منعها بأية وسيلة من الذهاب إلى المحكمة..

- ستوفر علينا الكثير من المتاعب لو قمت بهذا العمل؟

- أعرضت موضوع خطبتنا على ممتاز؟

- ممتاز أخي، متضايق جداً من موقف أختك، وقد طلب مني إرجاء الموضوع بضعة أيام.. عسى أن تعود سميحة إلى رشدها ونغلق العداوة بيننا، وتصبح علاقاتنا وطيدة..

- الحب الذي نما بيننا سيزيل الكراهية من الصدور، ثقي بذلك يا حبيبتي..

- أنا واثقة من ذلك، ولكن حاول مع سميحة، أرجوك..

- حاولت اليوم، وسأحاول غداً ولو اضطرني الأمر إلى ضربها..

- أتعلم، ممتاز أكد لي أن بيتنا المقبل، سيكون آية في الجمال.. سيقدمه هدية لنا عندما نتزوج.. ويبرم معك عقداً براتب شهري جيد منذ الآن..

فَكَّر منزعجاً: أمعقول أن نعادي أناساً بمثل هذه الطيبة؟

حين عادت نهلة إلى أخيها وأخبرته بلقائها مع منير، أعطى أوامره لرجاله بالاستعداد للقيام بعملية تحت جنح الليل..

وفيما كان منير عائداً إلى المنزل، وهو يستعيد لقاءه مع نهلة، ولم تفارقه رائحة عطرها، أحس أنها جزء من كيانه، لا يمكن أن يستغني عنه مطلقاً، وفيما كان يقترب من البيت.. استغرب وجود عدد كبير من الطيور الضخمة:

- ماذا تفعل هذه الطيور هنا؟ إنها تبدو كالتماثيل الجامدة، لولا رفيف أجنحتها لم ألحظها في الظلام.. نحن في زمن الهجرات الآن؟ معقول؟ لم تعد طيور الشمال بعد من مواطن تزاوجها

وفجأة خرج طير ضخم من المجموعة مقترباً من منير، وقد أشهر منقاره في اتجاهه، فشعر بالرعب، وأخذ يركض في اتجاه البيت، اجتاز الباب الخارجي وقفز أمام المدخل وفتح الباب وأغلقه بسرعة وهو يلهث، رأته سميحة على تلك الحالة، فسألته عمّا جرى فأجاب محاولاً السيطرة على نفسه

- لا شيء.. لا شيء.. إنه الظلام الدامس، خفت من الظلام

- أمك تريد رؤيتك، لم تنم بعد... حاول مسايرتها بالحديث عن صحتها والتأكيد بأنها تتحسّن، وأنك أحضرت بعض الأدوية لها كالعادة.. تعتبرك أفضل أطباء العالم، ومازلت في بداية الطريق...

- حسناً سأدخل إليها.. اسمعي يا سميحة، قبل أن أدخل إلى أمي.. أريد أن أسألك سؤالاً محدّداً؟

- ماذا تريد أن تسأل؟ سأجيبك عن سؤالك مهما كان.

- هل تهمك سعادتي ومستقبلي يا أختاه؟

- ما رأيك أنت؟ ألست أشقى في سبيلكم..

- أعلم ذلك.. بارك الله بك، أنت أخت عظيمة

- اختصر الطريق وقل لي ما تريد..

- اسمعي يا سميحة، أنا أحب نهلة الناظر وهي تحبني، وقد اتفقنا على الزواج، ولا أريد منك أن تحدثي شرخاً بيننا.. بالوقوف ضد إخوتها..

- هي من خرجت لمقابلتها في هذه الساعة المتأخرة؟ وأبلغتك بذلك؟

- لا تضيعي الموضوع، فكري بما أقوله أرجوك.. أريد أن أسمع رأيك في الصباح.. بإذنك أنا ذاهب لأمي.

انفجرت بالبكاء بعد، وهي تغمغم: يبدو أنني أحصد ثمار تضحيتي بحياتي... دون مقابل..

ولم تكن تلك الليلة هادئة، كانت حركة الطيور في الخارج قد ازدادت وقد تسلل شبحان إلى حديقة بيت سميحة، كان الظلام

داكناً، والطيور ترفرف بأجنحتها، كأنما كان وجود الرجلين لا يعجبها.. واجتاز الرجلان الحديقة نحو البيت، فانقضت عليهما الطيور.. واستيقظ الجميع على الضجة.. وهرعت سميحة وهادي إلى الشرفة:

- أتسمع يا هادي؟ ما الذي يحدث؟ هل أحضرت مصباح الجيب؟

- نعم إنه معي.. هه؟ يا إلهي ما هذا؟ الطيور تنقض على رجلين ترمقهما وتلقيهما، وتستخدم مناقيرها ضدهما.. انظري إنها طيور كبيرة من الحوم، يا إلهي معقول؟

- أبحث عن (بيرم) قد يكون بينها..

وانضم إليهما منير: ما الذي يحدث؟

- يبدو أن آل الناظر أرسلوا من يخترق سورنا، ويحدث الأذى في البيت.. ولكن الطيور أصدقاء (بيرم) كانت له بالمرصاد..

- أنت تتوهمين، لماذا يرسل آل الناظر هذين الرجلين إليك؟ إنهما مجرد لصين عاديين... ماذا تفعل يا هادي؟

كان هادي قد قفز إلى الحديقة نحو الرجلين:

- سأخلصهما من الطيور، واستجوبهما.. تعاليا إلى هنا.

كانا يتألمان ويصرخان: آه.. أنا أموت.. مناقيرها حادة كالسكاكين..

- آه.. جسمي مليء بالثقوب والرضوض

- تعاليا معي، قبل أن أترك الطيور تكمل مهمتها

- إنها لا تقترب منك.. لماذا نحن؟

- لأنكما تخربان، ويعلم الله لماذا أنتما هنا؟ هيا تحركا..

- نعم.. نعم..

قالت سميحة: أنتما من رجال ممتاز الناظر؟ رأيت وجهيكما من قبل

- آه الرحمة نحن نموت.. أشعر أن كل بقعة في جسمي تؤلمني..

- لماذا تسلقتما سور منزلنا وجئتما إلى هنا؟ لماذا

- كنا نحاول السرقة لولا هذه الطيور اللعينة..

صرخ هادي:

- اسمع يا هذا.. لا تحاول المراوغة، قل لنا ماذا كنت تفعل هنا أنت ورفيقك وإلا أعدناكما، إلى الطيور تكمل مهمتها في تغذيكما.. وقتلكما

- الرحمة.. سأحكي كل شيء

- هيا بسرعة.. احكِ لنا ماذا كنت تفعل هنا أنت ورفيقك؟

- أرسلنا (ممتاز آغا) من أجل الاعتداء على أختك.. لمنعها من الحضور للمحكمة غداً..

قالت سميحة: أسمعت يا منير؟

- إنهما يكذبان بالطبع.. أمعقول أن يرسلهما ممتاز في جنح الليل لهذه الغاية؟

- آه.. أنا أموت

قال هادي ساخراً:

- وما الداعي للكذب؟ أيمكن أن تقتنع أنهما جاءا يسرقان بيتنا؟ ماذا نملك فيه؟ أطنان من الذهب والفضة؟ في كل هذه السنوات لم نرَ لصاً، لماذا الآن، ونحن على أبواب محكمة، سيضر قرارها آل الناظر..

قالت سميحة مهددة: هيا أيها الوغدان، أسمعانا الحكاية من أولها..

- نعم يا سيدتي... نعم

حبسهما هادي بعد سماع أقوالهما في غرفة المؤونة وأغلقها بالمفتاح، وقرّر اصطحابهما في الغد إلى مخفر الشرطة للتحقيق بالأمر.. واتهام آل الناظر بالاعتداء على سميحة عن عمد وسابق إصرار..

وسمع هادي وسميحة رفرفة أجنحة الطيور في الخارج، فدخلا للنوم، وكان منير قد سبقهما وهو غاضب لا يصدق أن الرجلين مرسلان من قبل ممتاز الناظر..

وعند الفجر، استيقظت سميحة، وتفقدت غرفة المؤونة فوجدتها مفتوحة ولا أثر للرجلين، كما لم تجد (منير) في غرفته.. وحين نظرت حول البيت في الخارج لم تر أثراً للطيور.. أيقظت (هادي) الذي انفجر غضباً على منير، وقد أفقدهما دليلاً هاماً ضد آل الناظر، وشعرت سميحة بحزن عميق وقررت ألا تذهب للمحكمة.. رغم إلحاحات هادي.. ولكن هادي بكّر بالخروج إلى المحامي وكيل سميحة.. يرجوه أن يسعى لتأجيل المحكمة إلى وقت آخر، فأعصاب سميحة متعبة، وحكى له ما جرى في الليل.. وكيف أفقد منير أخته دليلاً هاماً ضد آل الناظر..

وهكذا نجح المحامي في تأجيل البت في القضية لشهرين آخرين..

وهذا ما أسعد أيضاً ممتاز الناظر، الذي وجد في هذه الفسحة من الزمن، مخرجاً له ليبحث عن حل جديد للمشكلة، قد يجعل هذا الحل سميحة بمنأى عن القضية إلى الأبد..

أما منير فأصرّ على توطيد علاقته بنهلة.. وسط رفض أخته وأهله.. وأعلن أنه سيخطبها مع بداية شهر أيلول، قبل بدء العام الدراسي..

أما سميحة فظلت على حزنها وفجيعتها بأخيها منير، تلتزم جانب الصمت، وهي تحترق من الداخل.. ولولا وقوف هادي الحازم معها، لاستسلمت تماماً..

وفي أحد الأيام، وكانت تجلس في الشرفة المطلة على الحديقة، سمعت خفق أجنحة طيور..

- هادي.. هادي.. أين أنت؟

- أنا قادم يا سميحة، خير؟ لماذا تناديني؟

- انظر هناك في الجهة الشرقية... ماذا ترى؟

- طيور ضخمة، إنها من (الحوم) هل بدأت هجرة العودة؟

- نعم.. وأنا مستغربة يا هادي.. كيف هبطت هذه الطيور إلى الأرض، وانتشرت فوق أشجار الغابة؟

- إنه الجوع والبحث عن مصدر غذاء

- ولكن ذلك اليوم الذي أتت فيه إلى هنا، وباتت طوال الليل حول منزلنا، لم يكن السبب فيه الجوع والبحث عن الغذاء..

- نعم.. إنه أمر محيّر فعلاً، كأنها أتت بغريزتها لتدافع عنك، ولكن كيف عرفت أنك في تلك الليلة ستتعرضين للخطر؟

- تلك الطيور ذكية وحساسة، ما دامت تهاجر تلك

المسافات الهائلة معتمدة على غريزتها، وربما على راصداتها السرية.. واستقبالها للأمواج، فلماذا لا تكون تلك الحساسية موجهة إلى شيء آخر، كمساعدة من قدم لها العون أو قدّم لأحدها العون الذي أنقذه من الموت؟

- سبحان الله.. أيمكن أن يكون بيرم بينها؟

- لا أعتقد، فلو كان بينها لأتى إلينا مسرعاً.. ربما هو من أرسلها في تلك الليلة، وربما ما فعلناه معه قد أدخل الطمأنينة إلى تلك الطيور فحطّت قرب الغابة تبحث عن الغذاء

- إنه تحليل منطقي

طرق الباب ففتحه هادي ليدخل الدكتور أسعد:

- كيف حالك يا هادي؟

- أهلاً بك يا دكتور أسعد، نحن نجلس في الشرفة.. تفضل..

- كيف حالك يا سميحة؟ أرأيت تلك الطيور قرب الغابة؟

- كنا نتحدث عنها قبل قليل.. أول مرّة تهبط طيور (الحوم) أثناء هجرتها نحو الجنوب.. في هذه المناطق

- إنه أمر عجيب فعلاً..

حدث نفسه منزعجاً:

- لن أستطيع أن أحكي لها عن الحلم المخيف الذي رأيته، والطيور وسط النار، تدافع عنها

كان موعد جلسة المحكمة قد اقترب كثيراً، وشوهدت أسراب طيور (الحوم) في المنطقة بأعداد كبيرة، وكانت سميحة وإخوتها يترقبون ظهور (بيرم) بينها..

وفعلاً، صحوا في صباح أحد الأيام.. على رفرفة أجنحة وأصوات من داخل سور المنزل.. ورأت سميحة (بيرم) وبصحبته بعض الطيور الأخرى، وحين فتحت النافذة.. دخل إليها وهو يطلق أصواته، ومعه خمسة من الطيور، لم يفارق (بيرم) والطيور الخمسة الأخرى المنزل، وقد خمنت سميحة أنها أفراد عائلته.. كان يطير معها لدقائق، ثم يعود ويحوم ويحط على الشجر.. والجميع فرح بوجوده..

ولكن أمراً كان يدور في الخفاء في الليلة الأولى من افتتاح المدارس، وكان منير يحتفل بخطبته على نهلة وسط امتناع إخوته عن الحضور، وكانت ليلة صاخبة..

حاول هادي تهدئة أخته:

- نامي يا سميحة، ولا تفكري به.. لم يفكر هو بنا.. وتجاهلنا تماماً.. لماذا هذا الحزن والبكاء؟

- أفقدته تلك الفتاة توازنه.. لم يكن منير هكذا أبداً..

كانت الطيور ترفرف بقلق، قال هادي:

- الطيور لم تهدأ أبداً منذ غروب الشمس.. حركاتها غير طبيعية..

بكت وهي تجيبه: إنها تنعَى لنا (منيراً) وقد انضم إلى صفوف أعدائنا، إلى بيت الناظر..

- أرجوك يا سميحة، حاولي أن تنسي الموضوع، وتمدّدي على سريرك، قد تنامين، أنت منهكة متعبة، هيا يا سميحة هيّا يا أختاه.

كان يهجس منزعجاً: لماذا فعلت بها هكذا يا منير؟ كانت تحرق أصابعها من أجلك

كان منير في ذلك الوقت سعيداً وأصابعه تعانق أصابع نهلة، وقد التف حولهما المدعوون، وحلبة الرقص مزدحمة بأزواج الراقصين، وكان ممتاز يتنقل بين المدعوين وبيده كأس الخمر، يظهر سعادته بصهره الجديد.. كان يفكر بما عقد ورجاله العزم على تنفيذه وسط الصخب والفوضى.. وهو يبتسم في سرّه، سعيداً فالخطة حبكت جيداً ولا مجال للخطأ في تنفيذها..

تسلل رجاله إلى الغابة، ومعهم صفائح البنزين يرشون ما فيها حول الغابة، بسخاء كبير.. وكان الدكتور أسعد يشعر في تلك الليلة بالانقباض، وقد وصله نبأ خطبة منير على نهلة، كان يحب سميحة بصمت، وعلى استعداد للتضحية في سبيلها..

كانت تمثل له أنموذجاً لامرأة خارقة فيها من القوة والحنان والمحبة ما في قبيلة نساء كاملة.. وقد عشق فيها تلك الصفات، وتمنى لو تصبح رفيقة عمره، وكان ما يبهجها ويبهجه وما يحزنها يسحق قلبه.. لم يستطع النوم فخرج يتمشى في طريقه نحو منزل الفتاة التي تعلق بها وقد لحظ أن الطيور الضخمة بدأت تتوافد إلى المنزل تحيط به، كأنها تحميه..

ووسط هذا المنظر الغريب، اندفع أحد الطيور صوبه يتمسح به، عرف به (بيرم) الطير الذي ساهم في علاجه، وكان مرضه وعناية سميحة به، أحد أسباب انفتاح قلب أسعد على حبّ سميحة.. وفجأة علت أصوات الطيور تزعق وترفرف بأجنحتها، نظر أسعد حوله فلم يجد مبرراً لحركة الطيور الغريبة، ولحظ أنها ترتفع بنظام ثم تتجه نحو الغابة.. عدا بيرم وبضعة طيور أخرى، ظلت تحوم حول منزل سميحة... خيل إليه أنه يشم رائحة شيء يحترق.. وخيل إليه أنه يشم رائحة البنزين النفاذة..

رأى رجلين يركضان مبتعدين عن المنزل والطيور تلاحقهما، وسمع أصوات صفائح فارغة، وتوهجت السماء فجأة بضوء شديد اندلع جهة الغابة، وخلال لحظات رأى ألسنة النيران ترتفع حول الغابة، وتنتقل لتحيط بها بسرعة..

ورأى كأن النار تمتد صوبَ أرض سميحة، وتتجه بسرعة إلى

المنزل، فطاش صوابه واندفع صوب الباب يضرب بعنف ليصحوا على طرقاته العنيفة وهو يصرخ:

- سميحة، هادي، من في البيت استيقظوا بسرعة..

- خير، ماذا هناك يا أسعد؟

- النار تتجه صوب بيتكم ممتدة من الغابة، لاريب أن أحدهم دلق البنزين حول البيت، ووصل ما بينه وبين الغابة، شاهدت رجلين تطاردهما الطيور...

- النار يا سميحة، إنها تمتد إلى البيت..

ارتعبت سميحة:

- أيقظ أخويك واستعدوا بسرعة سنغادر البيت.. سأحاول إنقاذ أمي

- يجب أن نخرج بسرعة.. سأساعدك في إنقاذ أمي

- اذهب مع أخويك.. سأحاول إنقاذ أمي

صرخ أسعد: النار تلتهم البيت يا إلهي.. سميحة.. سميحة أين أنت؟

- أنا هنا يا أسعد حاول الخروج مع أمي، أرجوك ساعد إخوتي

- حسناً.. هيا يا هادي تعالوا بسرعة..

قال هادي منفعلاً: سميحة تحاصرها النيران..

كان البيت ملفوفاً باللهب، شعر أسعد برعب حقيقي على الفتاة التي يحبها:

- سأحاول إنقاذها والعجوز... سميحة اصمدي أنا قادم..
(صوت رفرفة طيور)

«يا إلهي ما هذا.. إنها الطيور.. طيور كثيرة تنتشر حولنا لا تبالي بالنيران

سمع صوت بيرم المميّز وسط الطيور.. حاصرته النار كانت تلتهم الباب الخارجي والسور، «ما هذا يا إلهي، الطيور تنقض علينا، وتمسك بنا بمخالبها»

كان بيرم، يرتفع بسميحة من النافذة.. مجتازاً النيران غير عابئ باللهيب.. وفعلت الطيور الأخرى ما فعله بهادي وأخويه وأسعد.. والأم العجوز التي يبدو أن الدخان قد قتلها، وأحد الطيور الضخمة يبتعد بها مع البقية صوب مكان آمن..

كان منظراً فريداً لم ينسه أحد من سكان البلدة.. الذين استيقظوا على حريق الغابة الضخمة، وانفلات حيواناتها المذعورة.. ثم امتداد النيران صوب منزل سميحة.. ومجموعة هائلة من الطيور الضخمة تحوم حول النار، تحاول انتشال من في

داخل المنزل، ثم ترتفع وهي تحمل في مخالبها أشخاصاً ميزهم الناس في ضوء النيران، سميحة، وهادي، والأخوين الصغيرين، ثم الدكتور أسعد.. والأم العجوز.

تمكنت الطيور من إنقاذهم بشجاعة لا تصدق.. وحملوهم صوب النبع القريب من الغابة، حيث اندفع الناس إلى هناك.. يتكلمون بعضهم مع بعض غير مصدقين:

- أسرعوا صوب العين، لقد حطَّت الطيور هناك..

- أمعقول أن تفعل الطيور هذه المعجزة، أية محبة تكنها لسميحة وإخوتها..

- اعتنت بأحدها أكثر من شهرين، وحان موعد رد الجميل..

- إنه شيء لا يصدق.. ولكن من أشعل النار في الغابة؟ ومن أشعل النار في منزل الفتاة المسكينة؟

- ومن غير آل الناظر الذين يحقدون على سميحة؟

- ولكنهم سيزوجون أختهم لمنير أخي سميحة؟ ألا يعني ذلك شيئاً؟

- لم يحضر أحد الخطبة، ممتاز رجل خبيث قصد من عمله تخريب ارتباط سميحة بمنير..

- يا إلهي ما هذا؟ الطيور تملأ مناقيرها بالماء وترشه فوقهم..

إنهم غائبون عن الوعي.. يبدو أن العجوز ميتة.. مسكينة.. وماذا عن البقية؟

- سيعودون لوعيهم.. أعرف سميحة، إنها قوية، جارتي أعرفها جيداً..

- هيا.. رشوهم بالماء.. هه بدؤوا يتحركون، الطيور ما زالت تحوم حولهم، ذلك الطير يقبع حزيناً قرب سميحة، إنه الطير الذي رعته..

- سبحان الله.. إنه منظر خرافي لا يصدّق..

ووقف أسعد موقفاً بطولياً نادراً، ووضع منزله تحت تصرف سميحة، وقدم كافة المساعدات لها ولإخوتها ليستردوا روعهم.. وخجل منير من نفسه بعدما عرف بالحادثة.. في تلك الليلة، حاول الاعتذار من أخته، والعودة إليها وإخوته... وهم يدفنون الأم العجوز في مقبرة البلدة، ولكنّ سميحة المفجوعة رفضته، على الرغم من محاولات أسعد، وظلت الطيور تحوم في المنطقة لعدة أيام قبل أن تجمع نفسها وتنطلق في رحلة الهجرة إلى الجنوب..

وعلى الرغم من كل شيء، فلم يملك أحد دليلاً ضد آل الناظر، وحين عقدت المحكمة جلساتها، أقسمت سميحة اليمين،

من أنه إذا كانت أرض الغابة لأبناء الناظر، فلها ولإخوتها النصف، ورغم محاولات أبناء الناظر رفض الحكم إلا أن الحكم النهائي أعطى سميحة وإخوتها النصف، بعدما انضم نفر كبير من أهل القرية للشهادة مع سميحة، وقد عرفوا أن عائلة الناظر قد تسببت في المأساة التي حصلت لتلك الفتاة الشجاعة سميحة..

وأقنع هادي سميحة بالزواج من أسعد ما داموا يقيمون في بيته.. وظلت قصة طيور الحوم تتردد في تلك البلدة التي تقع في وسط البلاد.. طيور قدمت سميحة لأحدها العون، فاجتمعت لإنقاذ سميحة من محنتها..

أما منير فظلّ في العاصمة حتى أنهى دراسته ويقال إنه ذهب ليكمل اختصاصه في أوربة بصحبة نهلة.. ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً...

* * *

انفاق العوالم الاخرى

كان متعلقاً بأخته الكبيرة، لحنانها وقوتها وذكائها، كانت صمام الأمان في المواقف الصعبة، وكانت تحل المشاكل مهما كبرت وعظمت، ببراعة فائقة، تنم عن حضورها وفهمها العميق..

في تلك الليلة، سهر إلى جانب أخته المريضة، التي حط بها مرض عضال بشكل فجائي، وبدأ يذويها بالتدريج، وهي تقاوم باستماتة من أجل أولادها الذين لم يبلغ نصفهم سن الرشد بعد.. أرغمته بعد منتصف الليل على الرحيل إلى بيته، ابتسمت له مودعة، وخرج وهو يشعر بغصة في صدره للوضع الذي يتهدد حياة أحب الناس إليه... وصل البيت متأخراً، كان الجميع نياماً.. تمدد في فراشه محاولاً النوم، والقلق يغزو قلبه..

وأخيراً أتى النوم لحازم، وذلك قبيل الفجر بقليل، وشعر أنه يخرج من عالمه في حلم غريب مذهل.. كان يسير في منطقة فيها أودية وهضاب وكهوف عميقة، وكانت هناك صبية تهتف باسمه:

- أستاذ حازم.. أنا فاطمة..

- فاطمة؟ كأني رأيت وجهك من قبل

- أنا رفيقة أختك، التقينا عندها أكثر من مرة

- آه.. مديرة المدرسة؟ تذكرت.. نعم.. نعم.. ماذا تفعلين هنا؟

- أنتظر مجيئك لإدخالك إلى الكهف.. كلفوني تلك المهمة..

- إدخالي إلى الكهف في بطن الجبل أمامنا؟

- نعم تفضل..

- ولماذا أنت بالذات؟

- لا أدري هذا ما قالوه لي..

- من هؤلاء؟ أعرفهم؟

- لا أعتقد... تفضل.. إنهم يلوّحون لي أن أصحبك

- يلوحون لك، ولكني لا أراهم..

- أنا أراهم وحدي، أنت تختلف عنا، أنت من عالم آخر، عندما يريدونك أن تراهم فستراهم.. أرجوك اتبعني...

- حسناً..

أخذت الأصوات تصل إليه.

- أدخليه الكهف من هذه الدرجات.. سيرى نفسه في المكان الذي يحب أن يراه..

-لا أفهم شيئاً، قولي لي يا فاطمة، لماذا أسمع الحديث ولا أرى الشخص الذي يتحدث به؟

- ستفهم كل شيء.. تفضل اهبط الدرجات..

«يا إلهي ما هذه الأصوات؟ إنهم أناس يتأوهون.. أشعر بالكآبة»

- أهلاً بك بيننا يا حازم

- من أنت؟ ولماذا لا أراك؟

- ستراني بعد قليل أنا ورفاقي، لا تقلق..

- أرجوك، أخبرني أولاً أين أنا؟ وما هذا الكهف الغريب؟...

- إنه الكهف المطل على سرداب الموت.. أو نفق الموت كما تسمونه هناك.. إنه على حافة العالم الآخر..

- ما هذا الذي تقوله؟ ومن أحضرني إلى هنا؟ ما الذي يحدث لي؟

- ستفهم كل شيء فيما بعد.. لا تتعجل..

قالت فاطمة لأحد أولئك الناس:

- هل انتهت مهمتي يا سيدي؟

- لا يا ابنتي، لم تنته بعد.. أنت شابة عشت حياة قاسية، وكنت مثال الطيبة والأمانة.. يجب أن تُوَصّلي رسالتك للناس.. لم تنته المهمة بعد.. لأنك لم تتوكلي بها، أقصد مهمتك الحقيقية.. ليس إحضار هذا الرجل هو مهمتك فقط، مهمتك شيء آخر ستفهمينه بعد قليل...

صرخ حازم:

- أرجوكم أنا أسمع أصواتكم ولا أراكم.. من أنتم؟ أريد أن أتعرف وجوهكم..

- لا تتعجل يا حازم.. يبدو أن خوفك سيعيدك إلى عالمك.. ألا ترغب بالبقاء الآن معنا؟ لماذا تشعر بالخوف؟ برزخ الموت هو برزخ حقيقي واقعي، لماذا التهرب من حقيقته؟

- أعلم أن الموت حقيقي... وهو الحقيقة المطلقة في حياة البشر، ولكن جوكم يرعبني، لا أشعر بالطمأنينة.. وأنا أسمع صوت التأوهات.

- إنها تأوهات الثكالى والمعذبين.. الذين غادروا حياتهم هناك، دون إرادة أو رغبة، ما زالت روابطهم بحياتهم الأولى قوية بسبب علاقاتهم وعواطفهم ومحبتهم أو حتى مبغضيهم..

- أنا لا أفهم شيئاً.. ما الذي يحدث لي؟ أنا أرتجف، مرهوب

من هذا الجو، ما الذي يحدث لي؟ هل أستطيع الفرار من هنا؟ آه.. أشعر بالاختناق..

واستيقظ وقلبه يضرب بعنف...

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

- ما هذا يا حازم؟ كابوس؟ اشرب الماء إلى جانبك

- كان حلماً مخيفاً، الموت وبرزخ الموت..

- إنه بسبب مرض أختك المتطور، عافاها الله.. لا بأس يا حبيبي، حاول أن تهدئ من روعك.. الحياة فيها المتعة والألم، وربما الألم أكبر بكثير من السعادة...

- إنها السابعة والنصف، سأنام ساعة أخرى يا سلوى..

- حسناً أنا ذاهبة مع الأولاد إلى المدرسة.. سأتصل بك من هناك..

ولكن تلك الساعة التي غفا بها حازم لم تكن عادية، فحينما أطبق عينيه وشعر بثقل أجفانه.. حط عليه كابوس آخر...

كان كابوساً له علاقة بتلك الفتاة (فاطمة) التي قابلها في حلمه الأول، وكان ذلك الكابوس أشبه بحقيقة صارخة..

- لماذا خفت منهم؟ لم يفكر أحد منهم بإيذائك، لأنهم لا يستطيعون.

- تركتهم يا فاطمة، أراك هنا في الغابة بعيداً عن الكهف..

- الذي أعرفه عنك، أنك فضولي جاد بالبحث عن الكشف المعرفي، ولكن خوفك منعك من متابعة كشف شيء قد يكون اكتشافه لديك كثير الأهمية.. إنه العلاقة بين الحياة والموت، برزخ الموت، نفق الموت..

- لست أدري ما الذي أرعبني؟ هل أستطيع العودة من جديد؟

- لا أدري.. على كل حال يمكن أن يأذنوا لي بالمجيء إليك واصطحابك إلى هناك، هكذا أعتقد، وإن كنت غير متأكدة..

- ما علاقتك بهم يا فاطمة؟ تبدين كمن تعملين عندهم..

- مازلت على ارتباط كبير معهم، لم تنته علاقتي بالحياة بعد..

- لم أفهم.. ماذا تقصدين؟

- مازلت على حافة الموت، وأنا ميتة، أتعذب دون أن أتابع رحلتي..

- أنت ميتة؟ ماذا تقولين؟ أذكرك نضرة مشرقة الوجه..

- أصابني ذلك الورم اللعين في صدري، ثم تابع بسرعة انتشاره، أماتني في فترة وجيزة..

فكّر خائفاً: ما هذا يا إلهي، هي ميتة فعلاً..

- لا تخف مني؟ أريد مساعدتك.. أنا أتعذب...

- أساعدك؟ كيف؟ ولماذا تتعذبين؟

- لأن هناك أشياء في دنياي، لم أكمل مهمتي فيها بعد.. مازالت ديوناً عندي.. أكدوا لي هنا، أنه إذا قبل أحد بإكمال أموري في الدنيا هناك.. فسأعبر البرزخ إلى العالم الآخر

- إكمال أمورك في الدنيا؟ أي نوع من الأمور؟

- سأقول لك..

كان بعضهم يصرخ عليها، ثم سمع حازم صوت امرأة:

- عجلي يا فاطمة.. يطلبونك.. يبدو أن بقاءك هنا أصبح مستحيلاً..

- انتظري قليلاً.. أرجوك يا أستاذ حازم، حاول مساعدتي، أريد أن أعبر البرزخ، وأنا مرتاحة في دنياي..

- وماذا تريدين مني أن أفعل؟

- عجلي يا فاطمة، قبل أن يرسلوا حراساً إليك..

- حسناً أنا قادمة بسرعة.. اسمع يا أستاذ حازم، لا وقت لدي، اذهب إلى بيتنا، سأنقل تفاصيله إليك، في ذاكرتك، ابحث عن دفتر قديم، أكتب فيه يومياتي، حقق لي أرجوك.. ما وضعته في نهايته..

- هيا أيتها الفتاة.. يجب أن تعودي بسرعة..

سمع أصواتاً كثيرة ولم ير أصحابها، ثم رأى فاطمة ترتجف.. همست له (إنهم الحراس).. ثم صرخت:

- آه.. اتركاني، لا تضغطا علي، أنا ذاهبة معكما..

قال لها أحدهم: لا وقت لدنيا، قد نعاقب إذا لم نحضرك بسرعة..

وأردف الآخر: هيا سنصل إلى هناك في الوقت المحدد.. إن معبر الموت الآن كثير الازدحام

- بسبب كثرة الموتى، البشر يقتلون أنفسهم بشكل مخيف..

- كأنها نهايتهم.. يا ويلاه..

صرخت وهي تبتعد: لا تَنْسَني يا أستاذ حازم، أرجوك

«ما الذي يجري لتلك الفتاة، إنها تبتعد كأنها تطير وتتمدد قامتها.. لن أنسى الرعب البادي على وجهها وعينيها الجاحظتين»

شعر بحركة خلفه:

- ماذا تفعل هنا أيها الرجل؟

كان رجلاً خشناً فظ الملامح، أجابه حازم:

- كنت ماراً من هنا.. استوقفني صديق لأساعده.. لماذا تسأل؟

- لأنها منطقة محرمة.. ومن يصل إليها محكوم عليه بالموت..

- ماذا تقول؟

- تعال إلى هنا.. سأقودك إلى سيدي، هو من سيحكم عليك

- اتركني أيها المتوحش، لدي مهمة يجب علي القيام بها..

- مهمة هه.. سأطلق الكلاب عليك.

لم يشعر حازم من أين أتت كل هذه الكلاب.. التي تدفقت تحيط به.. ولكن رجلاً كهلاً اقترب منه:

- تعال معي يا أستاذ حازم.. سأقودك إلى بر الأمان..

اخترق الكهل تجمع الكلاب التي كان الرجل يهيجها لتهجم على حازم

- أحيطوا به.. أطبقوا عليه..

- لا أستطيع المقاومة

قال الكهل: سأنقذك.. يجب أن تحقق رغبة المسكينة فاطمة.. هيا..

ورأى نفسه يرتفع في الجو كأنه ينتشلني من بين الكلاب ويطير بي.. يا إلهي..

* * *

استيقظ من حلمه

«يا إلهي... كابوس آخر، له علاقة بتلك الفتاة؟ فاطمة.. آه.. أشعر بصداع وأنا أتذكرها.. يبدو حلماً أشبه بحقيقة»

شعر بصوتها ينفذ إليه:

«اذهب إلى بيتنا، سأنقل تفاصيله إلى ذاكرتك، ابحث عن دفتر قديم أكتب فيه يومياتي، حقق لي أرجوك ما وضعته في نهايته»..

«إنها عباراتها تتردد في داخلي.. ما الذي يحدث؟ يا إلهي»

رن جرس الهاتف قربه كانت زوجته سلوى من الطرف الآخر:

- سأمر بعد الظهر إلى بيت أختك، ستكون هناك؟

- نعم.. أنا ذاهب في الحال إلى هناك..

- حسناً.. سأحضر (طبختي) الجاهزة إليكم.. مع السلامة..

وضع السماعة وهو يفكر: «أشعر بدافع يدفعني لأفكر بتلك الفتاة فاطمة.. لم لا أسأل أختي عنها.. هذا أفضل»

وصل حازم إلى بيت أخته، كانت تتمدد بإعياء، وقد اشتد عليها المرض.. وحولها زوجها وأولادها، والطبيبة التي تتابع علاجها..

كانت الطبيبة تفحص التحاليل، من أجل جرعة كيماوية جديدة.. وقد تابع المرض انتشاره في عظامها..

قال لها حازم:

- وضعها لا يساعدها يا دكتورة على جرعة جديدة.. قد تعجل بقتلها..

- معك حق، سنعطيها بعض المقويات خلال يومين.. عدد الكريات البيض منخفض كثيراً، لا يسمح بإعطاء الجرعة الجديدة..

- هذا أفضل.. رفع عدد الكريات إلى الحد الأدنى قد يساعدها في تقبل الجرعة..

- سأكتب أنواع المقويات.. ويجب أن تطعموها بأية طريقة.. مواد مغذية كالحساء بالدجاج واللحم والخضراوات وغير ذلك..

- لا بأس سنقوم بذلك..

همهمت أخته المريضة إلى جانبه

- هه.. ما بك يا حازم، تبدو متعباً

- أنا بخير يا أختاه.. لم أنم أمس جيداً..

- أنا أتعبتك معي كثيراً يا أخي..

- لا تفكري بذلك، تعلمين كم أنت حبيبة إلي..

- آه يا حازم.. لم يبق في العمر بقية، كنت أشعر بالحاجة إلى المقاومة، ولكني الآن، أشعر أن مقاومتي بلا فائدة، أيامي

معدودة، أعلم ذلك جيداً.. اتركوني أموت بهدوء بينكم ولا تزيدوا من عذابي..

- لا تقولي ذلك يا أختاه.. سنظل نبذل ما نستطيع لإطالة لحظات حياتك.. أنت أعز عندنا من كل شيء.. لن نرضى أن نفتقدك سريعاً..

- يكفي يا حازم أرجوك.. جسمي مهدود متعب، لن أستطيع الصمود أعلم ذلك، كل أسلحة مقاومتي قد انتهت، إنها حقيقة...

دخلت ابنتها (لانا)

- ماذا قالت لك الطبيبة يا خالي؟

- مقويات، ثم جرعة جديدة، ستتحسن بإذن الله..

رأت الدموع في عيني أمها فأجهشت بالبكاء:

- كنت تبكين يا حبيبتي؟

- كان خالك يلقي علي من نكاته، فأضحكني وأسال دمعي من الضحك.. أنا بخير يا ابنتي..

همس حازم: لانا.. لا تعذبيها.. بكاؤك يقتلها..

- أنا بخير

فكر محتاراً: «كنت سأسألها عن فاطمة، ولكن كيف؟ إنها في وضع لا يحتمل السؤال والجواب.. يا إلهي ساعدني»

خرج من الغرفة يسأل زوج أخته:

- تسألني عن فاطمة، صديقة أختك يا حازم؟

- نعم.. أتذكر أن إحدى صديقاتها كانت تدعى بهذا الاسم.. لم أرها منذ فترة، أما زالتا صديقتين؟.. أم إن فاطمة انتقلت إلى مكان آخر..

- فعلاً لقد انتقلت إلى مكان آخر.. ماتت المسكينة قبل شهر، واختك تسألنا عنها دوماً، ولا نستطيع أن نجيبها بسوى أنها تأتيك عند نومك أو تتصل مراراً للاطمئنان عنك، نخرها المرض بسرعة شديدة.. لماذا تسأل عنها يا حازم؟ ما الذي ذكرك بها؟

- لا شيء.. أتعرف بيتها؟

- بالطبع لا.. ولكن أختك تعرفه لماذا؟ تريد زيارة أهلها وتعزيتهم؟

- ربما.. أريد أن أتعرف ظروفها في أيامها الأخيرة..

- اسمع يا حازم.. أهلها لم يكونوا جيدين معها، لم يتعاملوا معها بإنسانية، ويبدو أن ذلك قد عجل برغبتها في الرحيل.. رأت نفسها وحيدة دون معين في أصعب الأوقات، فتركت المرض يستشري سريعاً وينهي حياتها..

- من أين لك هذه المعلومات؟

- أختك حكت لي شيئاً عن واقع فاطمة.. وصديقات أختك حكين لي عن ظروف وفاتها.. كانت فتاة سيئة الحظ لم تسعد بزواج، رغم جمالها الهادئ وشخصيتها الجذابة.. وربما كانت تخفي أسراراً في حياتها، لم تطلع أحداً من المقربين إليها على تلك الأسرار..

- معك حق.. هل الأولاد يعرفون بيت فاطمة؟

- لا أظن ذلك.. أختك الوحيدة، كما أعتقد، من تعرف البيت ولا مجال لسؤالها عن ذلك الآن

- هذا صحيح..

- أمصر على الذهاب إلى هناك؟ قد أدبر لك الأمر..

- لا.. لا داعي لذلك.. سأذهب إلى الصيدلية لأحضر المقويات لن أتأخر.. أتريد شيئاً آخر

- لا.. شكراً لك

ما إن خرج حازم من بيت أخته يبحث عن صيدلية قريبة، حتى شعر بدافع يدفعه إلى المسير في زقاق فرعي بعد بيت أخته بنحو (٥٠٠م)...

تابع طريقه في الزقاق، فشعر أن شخصاً معه، يدفعه دون أن يراه..

«ما هذا يا إلهي، كأنني أدفع للمشي في هذا الزقاق»

سمع صوتاً يتردد في داخله: «اعرج على اليمين يا أستاذ حازم، واسلك الدرب الجانبي هذا حتى النهاية.. ثم اقطع الشارع العريض وتابع سيرك في الزقاق المقابل.. ستصل إلى ما تبحث عنه»

- أسمع صوتك ولا أراك.. كأنني أعرف هذا الصوت..

- «أنا من جئت لأصطحب فاطمة إلى المعبر».

- معبر الموت؟

- نعم.. الآن حققت لها رغبتها سأعود.. تابع طريقك كما وصفتها لك، أرجوك..

شعر بالرعب: «هل كنت أحلم؟ معقول؟ ما الذي يحدث؟ أمر لا يصدق بالتأكيد»

نفذ حازم ما قالته له المرأة.. وحالما اجتاز الشارع العريض، ارتسمت في مخيلته، حارة أهل فاطمة بتفاصيلها..

كيف أتت مخيلته بتلك التفاصيل، هذا ما أرعبه.. اقترب مسيَّراً بقوة مجهولة إلى بيت أخضر يرتفع عدة درجات عن أرض الرصيف.. وطرقه، فتح الباب فرأى شاباً يحدّق به:

- نعم.. ماذا تريد؟

- أنا آسف يا أخ.. جئت أسأل عن الآنسة فاطمة..

- أختي؟ ماذا تريد منها؟

- كنت زميلها قبل أن أسافر خارج البلاد، وقد أعرتها بعض الكتب، وأرغب برؤيتها لاسترداد هذه الكتب..

- أختي ماتت يا أستاذ... منذ نحو شهر..

قال حازم بدهشة مصطنعة: ماتت؟ ماذا تقول؟

- نعم.. وأنا آسف لأنني قلت لك هذا الخبر الذي يبدو أنه أزعجك.. أكانت لك علاقة بها؟

- علاقة بفاطمة؟ كانت زميلة أعزها كثيراً، بمثابة أخت حقيقية..

- أخت؟ فقط؟ هه.. على كل حال لا أستطيع أن أخدمك بشيء

- ألا يمكن البحث بين أغراضها المتبقية عن تلك الكتب؟

- مع الأسف، كل أوراقها وكتبها ألقيناها في الحاوية.. وفي هذا اليوم نظفنا غرفتها... وألقينا ما تبقى من أشيائها في الحاوية هناك.. ولا أظن أن من بين تلك الأشياء كتباً سليمة..

- لا بأس.. شكراً لك

- مع السلامة.. لم تقل لي ما اسمك

- لا يهم.. شكراً لك

أغلق الباب فمشى حازم ببطء وهو يفكر:

«فعلاً مسكينة فاطمة، يبدو أنها كانت تعيش في عزلة مريرة بين أهلها.. وإخوتها مسكينة»



انتظر حازم قليلاً، ثم اتجه صوب الحاوية، ينكش ما فيها من نفايات وهو ينظر حوله بقلق حتى لا يراه أحد..

فلم يكن منظره طبيعياً، وهو الرجل الأنيق، أن يبحث في أكوام نفايات ملقاة بين البيوت ولحسن حظه لم ير أحداً يعبر الشارع الضيق، واستطاع خلال دقائق انتشال كيس أسود من النايلون به أوراق مجمعة ومكورة..

فتحه بلهفة، ليجد أنه يحوي أوراقاً أشبه بالمذكرات فعلاً.. مع بعض الفواتير والإيصالات وبطاقة هوية باسم فاطمة..

أخذ الكيس معه.. واندفع عائداً في الشارع الضيق، وقلبه يخفق بعنف وهو يرجو أن يكون قد حصل على ما كانت تريد فاطمة منه أن يحصل عليه..

نسي أدوية أخته بعض الوقت.. وحين أصبح في الشارع

الموازي لبيتها، ابتاع كيساً أنيقاً وضع فيه الكيس الأسود، وعاد يبحث عن صيدلية قريبة..

وجد مبتغاه سريعاً، وانكفأ راجعاً إلى بيت أخته.. ولحظت (لانا) ابنة أخته الكيس الضخم.. فأخبرها أنه يحوي بعض الكتب والأوراق الهامة التي استعارها من زميلة له..

قال لابنة أخته:

- أنا ذاهب إلى العمل بعض الوقت؟ أتريدين شيئاً يا لانا؟

- لا يا خالي.. لا أريد شيئاً.. ولكن أمي طلبت رؤيتك، لقد رأت حلماً..

- لن أطيل الغيبة، سأعود سريعاً.. سأدخل لأراها الآن..

- إنها نائمة، يمكنك الذهاب والعودة بأسرع ما تستطيع.. أرجوك..

- ستأتي سلوى عند الظهر ومعها الطعام..

- كنت أرغب بتحضيره الآن..

-لا داعي لذلك، سلوى أعدته اليوم.. لن أتأخر

* * *

وصل حازم إلى مكتبه في المؤسسة التي يعمل بها، وأغلق خلفه الباب، وهو متلهف لمعرفة ما في الأوراق التي تركتها فاطمة..

بصعوبة كبيرة، نظفها ورتب ما استطاع منها.. فوجد نقصاً كبيراً في الأوراق التي ظهر أنها اقتطفت من دفتر قديم..

ولم يدر ما يفعل... ولكنه حالماً بدأ بقراءة الأوراق الأولى بدأت تتكشف له بعض الأسرار التي لم يتوقعها..

«لا أدري كيف أبدأ هذه المذكرات، ليس من عادتي أن أسجل يومياتي، ولكني مدفوعة الآن إلى الكتابة، كأنني بها سأتخلص من أدران عالقة بحياتي التي تمشي بتعاسة دائمة... منذ تلك اللحظة التي ولدتني فيها أمي، والنحس يتوالى على حياتي.. أصيبت أمي بالتهاب بعد ولادتي كاد يفقدها حياتها.. وصدمت أبي سيارة أقعدته مشلولاً عن العمل سنة كاملة.. ذقنا فيها الأمرين كما قيل لي فيما بعد.. وكانوا جميعاً متشائمين من وجودي، فلقد بدأت المصائب معي كما صوروا لي.. وهكذا نشأت في وسط لم أجد فيه صديقاً أو أخاً أو قريباً يعطف علي... كنت أشبه بغريبة في العائلة.. وبدلاً من أن يسبب لي ذلك اليأس والحزن.. شعرت برغبة في المقاومة، وقد أيقنت أنني سأختار من طريقي، إما الحياة، وإما الموت.. الحياة رغم الصعاب والحصار

أو الموت من اليأس والاستسلام، ورغبتي في مقاومة ما في واقعي من ظلم جعلتني أنجح في الدراسة وأتفوق.. وفي ذلك اليوم الذي لا أنساه..

- يا فاطمة.. يا فاطمة.. أين أنت؟

- أنا هنا يا أبي، خير؟ ماذا تريد مني؟

- دوماً بين هذه الكتب، اعتني بنفسك قليلاً.. لدينا زائر اليوم أتى يخطبك

- يخطبني أنا؟ لم أكمل الخامسة عشرة بعد.. أنا في الصف العاشر يا أبي..

- أنت صبية ناضجة جميلة.. وقد طلبك جارنا (أبو راتب)

- لابنه السمين المنفوخ؟

- لا.. ليس لابنه، بل له شخصياً.. أبو راتب رجل غني، وزوجته مريضة بمرض مزمن من الطبيعي أن يفكر بالزواج.. وقد اختارك أنت، ستعيشين في نعيم يا ابنتي... إنه رجل كثير الثراء.. محلات تجارية، بيوت، عقارات..

- أنا صغيرة جداً بالنسبة إليه، معقول ما تقوله يا أبي؟

انفجر في وجهي:

- اسكتي قبل أن أكسر رأسك.. سيزورنا اليوم، يجب أن تستقبليه الاستقبال المناسب.. وإلا قتلتك.. أفهمت؟

«معقول يا إلهي، ماذا أفعل؟ أبو راتب؟ ذلك الوحش؟ الآن فهمت لماذا يلاحقني بعينيه حين أمر من أمام مكتبه الضخم، يكاد يلتهمني.. (تبكي) يجب أن أقاوم هذا الزواج اللعين، لن أستسلم».

رفضت الزواج، وأنا أمام أبي راتب، ولم أترك كلمة قبيحة إلا قلتها فيه، وخرج غاضباً، وبالطبع عاقبني أبي عقوبة جسدية قاسية، ما أزال أحمل آثارها، وشارك فيها بعض إخوتي الذين طارت أحلامهم بالعمل في محلات أبي راتب، بسرعة كبيرة، بسبب رفضي.. واستمرت حياتي بالقهر والحزن..

بحث حازم عن تكملة الورقة كان هناك نقصاً واضحاً قلب ورقة أخرى..

«أحببنا بعضنا بعضاً أنا ومحمود، كان شاباً رائعاً، عرف ظروفي وشجعني على المقاومة، ووصلت علاقتنا إلى حد أنه طلبني للزواج، ولم يكن غنياً، بل كان من أسرة فقيرة مكافحة، وهذا ما جعل أهلي يرفضونه، فزوج ابنتهم يجب أن يكون غنياً ليقدم لهم العون والمساعدة، وأغلب إخوتي فشلوا في الدراسة والعمل.. ولم يكن من بينهم من أفلح في الحصول على شهادة كشهادتي في التعليم»..

ولكن الجمل توقفت، كانت هناك أوراق ناقصة أيضاً.. أكمل بقية الأوراق..

«آه كم أبكي عليك يا محمود؟ كنت أملي في الحياة، لولاك لم أعرف للحياة طعماً.. يا إلهي كم كانت ميتة مريعة، تلك السيارة التي قطعت الطريق بسرعة فائقة، وكادت أن تأخذنا معاً ونحن نعبر الشارع، لولا أن دفعتني وضحيت بنفسك، كيف لي أن أنساك يا حبيبي؟ آه من هذا الواقع القاسي الذي أعيشه الآن.. أبدو أمام الناس ناجحة في عملي محبوبة، وفي قلبي حزن وسواد لا يعرف النور».

قلّب حازم ورقة أخرى..

«أبلغني الطبيب شيئاً غير عادي بدأ يصيبني .. لم أفهم في البداية ما يقصد، وحين عرفت الخبر لم أفاجأ كثيراً»..

- أنت مصابة بورم خبيث بدأ في صدرك.. وهو من نوع ليس سهلاً علاجه..

- وبماذا تنصحني؟

- يجب استئصال الورم سريعاً..

- منذ الغد إن رغبت.. كل ما أريده أن تبقي الأمر سراً حتى عن أقرب الناس إلي..

- لن يطول الأمر إلا وينكشف، الجرعات والاشعة ستكشفه..

- لا بأس حتى ذلك الحين

وحين علم إخوتي بمرضي، قال لي أحدهم:

- هذا جزاؤك لأنك لم تقبلي الزواج من أبي راتب.. كنا أصبحنا في أحسن حال..

- ألا تشعر بالشفقة علي يا أخي؟

- أصدقك القول.. لا بل لا أشعر نحوك بأية عاطفة، منذ ولادتك وأنت لا تسببين لنا سوى المتاعب والمشاكل، لا أحد يحبك..

- رغم ما أدفعه لكم من مال، ألاقي في سبيل الحصول عليه الويل والتعب

- إنه واجبك، حتى نقبلك لتعيشي بيننا، وإلا لم تكوني هنا منذ سنوات..

فكرت مصعوقة:

- «معقول ما أسمع؟ لو أرغمتني الظروف على التمدد على الفراش، فلن يقدم لي الخدمة أحد)

ولكن أخي تابع حديثه:

- أين بقية ألفي الليرة التي وعدتني بها؟

- انتظرني بضعة أيام.. سأحاول تدبير المبلغ، عندما أرتاح قليلاً من آثار العملية الجراحية..

«آه من هذا المرض اللعين هبط علي بكل ثقله.. ليته ينهيني في أيام، أنزوي معزولة كئيبة، لا أحد يكترث بآلامي.. لماذا يكرهونني إلى هذه الدرجة؟ أستعرض تفاصيل حياتي معهم، فلا أرى سوى اليتم والغربة والقهر والذل».

* * *

«يبدو أن مذكراتها قد انتهت هنا.. ولكن ما هذا؟ إنها أشبه برسائل قصيرة.. أطرافها ممزقة.. سأحاول ترجمتها إلى كلام مفهوم»

«وضع أم محمود يتعسني، لم أرها في ذلك اليوم، وضعت (إسواري) في علبة صغيرة، عند الجارة العجوز، ووعدتني أن تسلمها إليها.. ليتني أتأكد من ذلك.. ثم إن رفيقتي (هنادي) تحتاج إلى ذلك (البراد) الذي اشتريته من مالي الخاص، من أجل بيتنا أنا ومحمود.. أعلمتها بأنني وهبته لها، ما زال في المخزن الكبير، لم تستلمه بعد»..

فكر حازم: «أهذه هي المهام التي طلبت تحقيقها؟ إنها مهام بسيطة، مادية.. ولكن قد تبدو مهمة لها؟ سبحان الله ما أكثر رقتها وطيبة قلبها».

عاد إلى القراءة:

«عقد زواجي أنا ومحمود يجب أن يعرف به أهلي، حتى يتأكدوا أنني طاهرة الذيل، آه يا محمود، لولا صوت العقل ما عملنا ذلك العقد، الذي لم يمهلنا القدر لتنفيذه بالشكل المناسب»..

* * *

- غريب.. يبدو أنها تزوجت من محمود ما هذه القصاصات الممزقة.. إنها صورة عن عقد زواجها.. يبدو أن أهلها اطلعوا عليها ومزقوها.. لقد وصلت الرسالة إليهم.. لا أثر لأوراق جديدة.. مسكينة تلك المرأة.. طاردتني في أحلامي حتى أوصل ما ترغب إيصاله إلى الناس قبل عبورها برزخ الموت.. أية أحداث غريبة عانيتها بنفسي؟ لماذا اختارتني بالذات؟ هل لأنني أتعامل مع الموت، وأنا أرى أختي تذوي بين يديَّ في طريقها للنهاية؟

أرهقته المسألة، وهو يبحث عن أم محمود التي ذكرتها فاطمة، وعرف أنها حصلت على (الإسوار) وباعتها لتعيش أياماً أخرى من ثمنها قبل أن ترحل حزناً على ولدها.. أما (هنادي) رفيقتها فكانت جارة أخته أيضاً، وعرف أنها تسلمت البراد من المخزن

الكبير.. ولكن الشيء الذي حير حازماً في هذه الحكاية الغريبة هو: لماذا اختير بالذات ليحلم تلك الأحلام، ويطل على برزخ الموت، ويقابل طيفاً معذباً حائراً تربطه بعالمنا ذكريات طافحة بالألم؟

كم تختفي الأسرار في داخلنا، وكم نحتاج للقوة المناسبة لكشفها؟ هذا ما كان يردده وهو يرى أخته تستقبل الموت بابتسامة راضية.

* * *

سر البيت المهجور

كان شاباً ذكياً، تخرج من كلية الهندسة المدنية في جامعة دمشق، وسافر إلى إحدى دول الخليج حيث عمل هناك منذ عام ١٩٨٩ حتى عام ١٩٩٣م دون أن يزور أهله..

كان وحيداً لأبويه بين أربع بنات، لذلك لم يكن مطالباً بالخدمة الإلزامية، وحين عاد في صيف ١٩٩٣ كان مصمماً على خطبة إحدى الفتيات تمهيداً للزواج منها، لترافقه إلى الخليج من جديد ليتابع عمله هناك...

استقبلت أمه تلك الفكرة بالترحاب، ورغم عتبها عليه لغيابه عنها طوال هذه المدة دون زيارة، فقد كان تتعزى بصوته يصل إليها عبر الهاتف مرتين على الأقل في الأسبوع..

واقتنعت أخته الكبرى رحاب أن تفتش له عن عروس بين صديقاتها.. وبعد نحو خمسة أيام من عودته، كانت رحاب قد طلبته إلى بيتها بإلحاح.. ارتدى ثيابه الأنيقة، واتجه نحو بيت أخته في سيارته الحديثة.. «لا شك أن رحاباً قد دعت بعض

صويحباتها لأتعرف بهن، ربما كان من بينهن زوجة المستقبل، وفجأة صدمت السيارة رجلاً خرج فجأة من أحد المنعطفات، كان رجلاً كهلاً قذفته السيارة أمامها، أسرع أحد المارة نحوه:

- مسكين هذا الكهل.. الدم يسيل من رأسه..

- يا عم.. أرجوك..

- عجل بإسعافه بسرعة.. يحتاج إلى مستشفى..

وهرعت صبية في مقتبل العمر..

- أبي.. ماذا حدث له؟..

- لست أدري كيف ظهر أمامي فجأة..

- عجل يا أستاذ، سنعاونك في نقله إلى المستشفى.. الرجل يموت..

- طيّب.. طيب هه

- يا إلهي.. كيف تركته هكذا؟

- لا داعي للذهاب معكم.. أنت ابنته...؟

- نعم..

- إذن عليك الاهتمام به، إن شاء الله، لن يكون وضعه خطيراً..

- كان يبدو ملهوفاً وهو يقطع الشارع..

- كان ذاهباً للمحطة لاستقبال أمي، كانت في حلب تزور أختي بضعة أيام.. ولدت صبياً، ورعتها بعد الولادة..

- إذن ستكون والدتك في انتظاركما الآن؟

- لا يهم.. حالة أبي هي المهمة..

- أعتقد أنه في وضع غير عادي.. ما زال فاقد الوعي

وفي المستشفى: أرجوك يا دكتور.. إنه فاقد الوعي..

- سيستعيد وعيه بسرعة.. إصابته خفيفة من الخارج.. أرجو ألا يكون هناك نزيف داخلي.. على كل حال سنصوره حالاً لنتحقق من ذلك..

- يا رب..

- أنت من صدمه؟

- نعم..

- يجب أن نخبر الشرطة حتى تنظم ضبطاً بالحادثة..

قالت الفتاة: لا داعي يا دكتور..

- ربما كانت إصابته قاتلة يا آنسة...

- إنه قدره..

- لم يكن الشاب مسرعاً إلى هذا الحد..

- على كل حال.. سأرى نتيجة الصورة، وفي ضوئها سأرى ما يجب أن أفعله.. ساعديني يا آنسة..

- نعم يا دكتور..

- شغلي جهاز التصوير بالأمواج فوق الصوتية..

- إنه جاهز يا دكتور..

فكر منزعجاً: «يا إلهي... ما هذا الحظ التعس؟ يجب أن أخابر أختي رحاب لأعتذر إليها»...

ثم سأل الطبيب: أيمكن أن أستخدم الهاتف؟

- تفضل..

قالت الفتاة: وأنا يجب أن أتصل بالبيت...

تفضلي أرجوك..

كانت أخت حازم قلقة في ذلك الحين:

- لست أدري ما الذي أخّر حازماً، خرج من البيت منذ نحو الساعة..

قال زوجها: حاولي إشغال صديقاتك.. لوقت آخر.. ربما حدث له ما أخره..

- معك حق

(سمعت صوت رنين هاتف) هه.. لابدّ أنه حازم.. رفعت السماعة..

- آلو.. رحاب.. أنا آسف..

- لماذا تأخرت؟ أقلقتني عليك..

لسوء حظي صدمت رجلاً في الطريق... حالته غير مستقرة... أخاف أن يموت..

- ماذا؟ هل أبلغ أهله الشرطة؟..

- ابنته معي هنا، وهي مصرّة على عدم إبلاغ الشرطة، ولكن الطبيب سيبلّغ الشرطة بعد أن يرى نتيجة التحليل

- سأرسل سليماً ليعاونك.. أعانك الله يا أخي..

- لا داعي لذلك.. أرجو أن يعود الرجل لوعيه..

- لا.. سيصل سليم إليك خلال دقائق أعطني العنوان...



- بدأ يستيقظ الآن... الحمد لله..

- لم أر شيئاً خطيراً، كل شيء سليم، اصطدامه في منطقة

الجمجمة، هو الذي أفقده وعيه.. ليس هناك نزيف داخلي أيضاً..

حظك طيب، أيها الشاب، إنه يعود لوعيه الآن..

- هل أطمئن يا دكتور؟..

- إن شاء الله.. يحتاج لمراقبة بضع ساعات فقط..

- كيف هذا يا بني؟.. زوجي هادئ وليس..

قاطعتها الفتاة: أرجوك يا أمي.. ألا ترين حالته، إنه قلق وخائف؟

همهم حازم معتذراً: إنه القدر يا خالة، لا أدري كيف رأيته يظهر أمامي فجأة..

- لم ينتبه للوقت، فخرج مسرعاً إلى المحطة.. حتى لا يدعك تنتظرين كثيراً.. كان والدي متعجلاً فعلاً..

- لا بأس.. أجارنا الله من هذا الحادث مستقبلاً.. صدمة الرأس قد لا تظهر آثارها بسرعة..

«يا إلهي.. كيف حدث هذا؟ مازلت لا أصدق نفسي منذ سنوات، وأنا أقود سيارتي حتى في ظروف ازدحام كبيرة، لم أسجل حادثة ولو تافهة»..

همست الفتاة: هه.. لقد بدأ يفتح عينيه يا دكتور..

- آه.. أين أنا؟.. آه.. أنت هنا يا أم نهلة..

- حمداً لله على سلامتك الحمد لله أنت بخير...

- ما الذي حدث؟

- صدمتك سيارة.. أنت بخير الآن..

- نعم.. الحمد لله حالتك ممتازة..

- لا أتذكر شيئاً.. آه رأسي يؤلمني..

- من أثر سقوطك على الأرض، هيا يا آنسة جهزي حقنة المسكن..

- حاضر يا دكتور..

- ستنام بعمق وحين ستستيقظ سيكون كل شيء على ما يرام بإذن الله..

- يمكنك الذهاب يا أستاذ..

- اسمي حازم.. سأترك عنواني هنا.. وأرجو أن تعطوني عنوان منزلكم حتى أطمئن عنه.. أرجوك..

- لا داعي لذلك.. لن نطالبك بشيء... سامحك الله..

- أرجوك يا خالة.. أعتبر نفسي مسؤولاً عن أي تطور يحدث له مستقبلاً..

- حسناً.. سأعطيك العنوان ورقم الهاتف.. أعطني ورقة من فضلك

* * *

غادر حازم المستشفى وقد شعر بميل غريب نحو نهلة التي وقفت معه موقفاً ليناً، مقدرة ظروف قيادته، وسرعة والدها، وعدم انتباهه وهو يقطع الشارع.. ترك عنوانه وهاتف المنزل في المستشفى كما رغب الطبيب أيضاً واتجه صوب بيت أخته.

لم يكن في مزاج مناسب، لتعرف صديقات أخته.. فقضى دقائق يجاملهن، وهو يشعر بالقلق وعدم الارتياح..

وقد شعرت رحاب بتوتره البالغ.. فحاولت أن تدخل بعض التسلية إلى قلبه مع صويحباتها، دون نتيجة.

كان يفكر بالوضع الغريب الذي وجد نفسه فيه، ثم استأذن أخته وزوجها في الذهاب، وقد شعر أن صداعاً قوياً بدأ يعتريه..

وجد نفسه يتجه صوب المستشفى من جديد، ويدخل إلى قسم العناية المشدّدة حيث ينام الكهل.. كان وحيداً في فراشه، وقد دخلت إليه زوجته بعد قليل، وسلمت على حازم وطمأنته عن

حالته.. فشعر بالارتياح واتجه إلى البيت، ولم تفارقه صورة نهلة الحزينة، وحين عاد متأخراً إلى البيت كانت أمه في انتظاره:

- خير.. هل تعرفت صديقات أختك؟

- نعم.. نعم..

- إن شاء الله انتقيت إحداهن؟

- لا يا أماه.. لم أكن في مزاج مناسب..

- لماذا تأخرت عن أختك.. هتفت إليك أكثر من مرة، لماذا؟

- صدمت رجلاً في الشارع..

- يا ويلي، ماذا تقول: هل مات؟

- لا.. فقد الوعي فنقلته للمستشفى، طمأنني الطبيب سيكون بخير..

- الحمد لله على سلامتك.. وسلامة ذلك الرجل الغريب.. ألهذا أنت قلق ومتوتر...؟

- نعم يا أمي.. كان وضعاً صعباً..

- لم تكن فعلاً في مزاج مناسب.. هه.. هل أجهز لك العشاء؟

- أكلت قليلاً في بيت أختي... سأدخل لأنام يا أمي أشعر بالتعب..

- لابأس يا بني، تصبح على خير...

لم يستطع النوم في تلك الليلة إلا قبل الفجر بقليل، كان يستعيد الحادث والمستشفى، ووجه نهلة لا يفارقه، وحين غفا متأخراً رأى نهلة تبتسم في وجهه وهي تقوده في طريق مزدان بالخضرة والورود..

كان أول شيء يقوم به حين استيقاظه، هو الاتصال بها والاطمئنان عن والدها، الذي نقل إلى البيت من المستشفى في ذلك الصباح..

وشيئاً فشيئاً نمت بينهما علاقة عفوية، تحولت بعد أقل من شهر إلى حب جارف.. جعله يتقدم لخطبتها رسمياً.. وفعلاً تمت الخطبة، وقد اشترطت عليه نهلة أن يعود إلى دمشق ويستقر فيها، ما دامت فرص العمل كثيرة أمامه.. أمهلها بعض الوقت حتى ينهي أعماله وارتباطاته في ذلك البلد الخليجي، ومع بداية عام ١٩٩٤ كان حازم قد عاد إلى دمشق، وهو يبحث عن منزل مناسب لشرائه من أجل الاستقرار فيه مع نهلة بعد أن يتزوجها.. بدا كل شيء كالحلم.. كانا منسجمين في أفكارهما وطبائعهما وميولهما إلى درجة مدهشة، وهذا ما أسعد أهل حازم وقد رأوا أن ابنهم الوحيد سعيد إلى درجة لا توصف مع تلك الفتاة الرقيقة الهادئة.

كانت نهلة قد أنهت دراستها في الكيمياء، ووقعت عقداً مع إحدى شركات سوائل التنظيف المتكاثرة في البلاد، بعد صدور القانون (١٠) الذي يسمح بعمل مثل هذه الشركات الاستثمارية..

وصادف حازم ونهلة منزلاً في أحد أحياء دمشق القديمة...

- إنه بيت ممتاز..

- ما رأيك يا نهلة؟

- فعلاً يبدو بيتاً جميلاً... همست: ربما كان باهظ الثمن..

- سنسأل لا يهم.. قل لي يا أبا حسن ما ثمن هذا البيت؟

- آه.. بالنسبة إلى ثمن البيت ليس كثيراً.. ولكن هناك مشكلة..

- مشكلة مالية؟ الورثة موزعون في مناطق عديدة..

- لا.. لا ليس هذا ما أقصد..

- إذن ماذا؟..

- أنت رجل مثقف وزوجتك تبدو لي كذلك.. يعني لا تؤمنان بالخرافات والحكايات المبالغ فيها..؟

- بالطبع.. بالطبع.. أهناك مشكلة حول البيت..

- في الحقيقة ثمن البيت يبدو قليلاً بالمقارنة مع غيره.. والسبب هو أن الجيران يعتقدون أنه مسكوناً..

- ماذا تقول يا أبا حسن؟ مسكون بالجن والعفاريت.. أهذا معقول؟

- هكذا يقول الناس فيه.. ولم يتمكن صاحبه من بيعه أو تأجيره منذ أن خرجت هذه الإشاعة عنه..

-ما رأيك يا نهلة؟

- معقول أن يكون مسكوناً بالجن؟

- هه.. أنا آسف... يجب أن أخبركما بهذه الحقيقة.. هه.. هناك بيت قريب من هنا يمكنني أن أصطحبكما إليه.. ثمنه يقارب ضعف ثمن هذا البيت.. هه.. أتسمحان؟

- لا تتعجل يا أبا حسن.. أخبرني قصة هذا البيت..

- ربما من الأفضل أن تجلس مع صاحبه يا أستاذ حازم، سيخبرك بالتفصيل عن القصة - أنا لا أعرف إلا الفتات منها.. (يهمس) وإن كنت لا أصدق ذلك، وأعتقد أن هذا البيت من أجمل البيوت هنا، وثمنه القليل مناسب لمن هم في مثل ظروفكما يا أستاذ حازم..

- يجب أن نرى صاحب البيت، ونعرف منه القصة..

- معك حق..

* * *

وحكى صاحب البيت:

- بدأت القصة قبل عشر سنوات، حين أجرت البيت لأسرة صغيرة لمدة ستة أشهر، أبلغني رب الأسرة بعد يومين أن هناك أصوات تأوهات وحركة مقاعد وأشياء ثقيلة في الليل.. ولم يكمل هو وزوجته وطفله الأسبوع في البيت، إلا وأتى يطالبني بإرجاع الأجرة، فالبيت مسكون ولا يستطيع إنسان مهما كان قوياً جريئاً أن يستمر بالسكن فيه..

- وماذا فعلت؟

- أعدت قسماً كبيراً من الأجرة.. وجربت النوم في البيت أنا وأخي الأصغر، وكان شاباً شجاعاً.. لا أنكر أننا سمعنا بعض أصوات التأوهات الغامضة، ولكن لم تتحرك المقاعد أو الأشياء الثقيلة.. كما قيل لنا.. وصمم أخي على المضي في النوم وحيداً في البيت..

- لماذا وحده؟

- لأن زوجتي أصرت على النوم في بيتنا مع الأولاد.. وكانت في الشهر الخامس من حملها، بحاجة إلى من يساعدها أحياناً.. ومرت عشرة أيام على مبيت أخي في البيت وحده، وكنت أراه يومياً، كان يسخر من فكرة أن البيت مسكون بالجان، ويخبرني أنه في سبيله إلى حل اللغز..

- نعم.. وماذا حدث له، هل حل اللغز فعلاً..

- مسكين أخي.. عثر عليه الجيران ميتاً في الزقاق، وقد أصيب في رأسه، وقال التقرير الطبي عن حالته، إن أحدهم ضربه بآلة حادة من الخلف أدت إلى هتك الجمجمة والدماغ، وأدى ذلك إلى وفاته.. (يتنهد) ومنذ ذلك الحين انطلقت الإشاعات عن البيت المسكون، دون أن يجرؤ أحد على السكن فيه، ورغم أنني حسنت مواصفاته بالدهان وتركيب أبواب ونوافذ جديدة، فلم يرغب أحد بالسكن فيه..

- قصة غريبة.. هل عثر على أخيك أمام البيت؟ أقصد هل مات في الزقاق أمام البيت مباشرة؟

- لا.. كان يبعد عن البيت نحو مئة متر.. ولكن الناس ربطوا الحادثة بالبيت المسكون، وأن الجان انتقموا منه لأنه تحداهم وسكن في البيت..

- ما رأيك يا نهلة؟

- تبدو قصة غريبة.. لنبتعد عن شراء هذا البيت يا حازم، قلبي منقبض..

- أتعتقدين أنه مسكون فعلاً؟

- هناك سرّ في البيت، وربما كان سرّاً خطيراً.. لنبحث عن منزل آخر يا حازم أرجوك..

- هه.. ماذا قررت يا أستاذ؟ اسمع سأهاودك بالسعر أيضاً.. أريد أن أرتاح من همّ هذا البيت.

- من كان يملك البيت قبلك؟ وممن اشتريته؟

- اشتريته من مغترب يقيم في البرازيل، كان بيتاً مهجوراً منذ سنوات طويلة، أصلحه المغترب قليلاً ثم باعني إياه بثمن لم أجده كبيراً في ذلك الحين..

- إنه بيت من طراز قديم، أشبه بقصر صغير، ربما كان عمره يزيد عن مئة عام... هكذا أبلغني صاحب المكتب العقاري..

- ولم تره بعد؟

- أردت أن أراه بصحبتك.. هكذا اقترح (أبو حسن) صاحب المكتب..

- لابأس يمكنك أن تزوره وزوجتك في أي وقت تشاء.. ما رأيك لو تأتي إلي بعد الظهر لنذهب سوية إليه، الساعة الثالثة مثلاً؟

- لا بأس، سنلتقي في الساعة الثالثة..

واعترضت نهلة على شراء البيت: قلبي منقبض يا حازم، لماذا

أنت مصر على رؤية البيت.. مهما يكن لن أوافقك على شرائه ما دامت له قصة..

- نحن على أبواب القرن الحادي والعشرين يا حبيبتي.. أيجب أن ترعبنا الخرافات والإشاعات الفارغة، أنا متأكد أن ما حدث للشاب لا علاقة له بالبيت المسكون والأرواح الشريرة التي توجد فيه

- أنا خائفة يا حازم..

- لا تخافي يا حبيبتي.. لست متهوراً إلى هذا الحد.. أنا إنسان منطقي، ويجب أن أناقش المشكلة بالعقل

* * *

وجاء حازم ونهلة حسب الموعد، واصطحبهما صاحب البيت، إلى ذلك البيت القديم، كان بالفعل أشبه بقصر قديم، له حديقة واسعة وسط مجموعة بيوت صغيرة تتصل بالشارع العام بأزقة ضيقة..

لم ير حازم شيئاً ملفتاً للنظر داخل البيت إلا ذلك القبو المعتم ببابه الحديدي السميك، وقد أكد صاحب البيت أنه حاول فتحه بالمفتاح الضخم الذي سلمه إياه المغترب، ولكنه لم يستطع، ربما

بسبب تراكم الصدأ على القفل.. لذلك وضع أمامه بضعة قطع من الأثاث القديم الذي وجده فيه قبل أن يرممه ويحسّن من طلاء جدرانه.. والغريب أن نهلة أحبت ذلك البيت كثيراً، وهمست إلى حازم ترجوه أن يشتريه بأي ثمن، فلم تعد خائفة من القصص الغامضة التي تروى عنه.. وهكذا وجد حازم نفسه يتفق مع صاحب البيت وينقده الثمن الذي اعتبره ضئيلاً أمام عظمة البيت وجماله المدهش...

- سنصلحه يا نهلة أيضاً، قبل أن نفرشه بأثاث مناسب.. وستقيم أختي معنا..

- رحاب؟ الأرملة؟

- نعم إنها وحيدة مع ابنتها الصغيرة تكاد تشكل عبئاً على أهلي في بيتنا الضيق..

- أنا موافقة يا حازم على كل ما تراه مناسباً.. هه.. أتعتقد أننا سنرى أشياء غريبة أيضاً؟

- سنحلل كل شيء بالعقل.. وما دام إيماننا بالله قوياً فلا داعي للخوف من شيء..

- معك حق..

أشرف حازم على طلاء البيت من جديد وإصلاح بعض

أعطاله، وبدأ يؤثثه بالتدريج مع نهلة.. وبعد نحو شهر، وبالتحديد في أوائل آذار من ذلك العام (١٩٩٤) كان البيت جاهزاً للسكن.. وقد جرت حفلة زواجه مع نهلة في منتصف آذار، وسافر إلى حلب بضعة أيام في رحلة عسل كما سماها..

وحين عاد كانت رحاب أخته تستعد للانتقال إلى البيت، هي وابنها الصغير، وسط محاولات اعتراض من والدتها التي رغبت أن تظل معها في بيت العائلة..

وأقنع حازم والدته بأن سكن رحاب معه سيريحه ويريحها أيضاً.. وهكذا بات الجميع أول ليلة في ذلك البيت الذي كثرت عنه القصص الغريبة والحكايات المرعبة..

- مازلت عروساً يا نهلة، لن أدعك تقومين بأي عمل الآن..

- انتهت أيام العسل يا عزيزتي، والبيت كبير، يحتاج إلى التعاون..

- لا تقلقي سأشركك بالعمل بعد أيام.. ولكن ليس الآن..

- معقول؟ أنا أكره الكسل يا رحاب، لا أستطيع البقاء هكذا دون عمل.. أشعر بسعادة كبيرة لوجودك معنا

- وأنا أيضاً..

- إنه علي، يبكي بحرقة..

- ما بك يا حبيبي، لماذا تبكي.. كان نائماً، يبدو أنه رأى كابوساً..

- حتى الأطفال يرون الكوابيس..

- نعم.. إنهم يرون ما لا نراه نحن..

- ماهذا؟ أسمعت؟

وصل إلى سمعهم صوت ضجة وسقوط أثاث..

- سأتحقق من الأمر..

عاد بعد قليل: إنها قطة يبدو أنها تسللت من النافذة المفتوحة على الحديقة إنها جائعة، سأضع لها قليلاً من الخبز والحليب...



هه... منذ بضعة أيام ونحن نقيم هنا لم نر أشياء تتحرك وحدها أو نسمع أصواتاً غريبة في الليل.. ألم أقل لك إنها مجرد إشاعات.. يعلم الله السبب في إطلاقها..

وفجأة انبعث صوت أنين

- أتسمع؟

- ربما كانت رحاب.. سأذهب لرؤيتها..

- ولكنه صوت رجل يا حازم.. رجل يتأوه.. آه أنا خائفة..

- سأبحث عن مصدر الصوت، لا تخافي..

أتت رحاب خائفة: ما هذا يا حازم، إنه رجل يتأوه..

- ابقيا في الداخل، سأبحث عن مصدر الصوت..

- إنه من الجهة الخلفية للبناء..

- معك حق.. هيا يا نهلة، ادخلي ورحاب وأغلقي الباب جيداً.. سأتحرى الأمر وأعود بسرعة..

- انتبه لنفسك يا حازم..

- لا تخافي..

بحث حازم عن مصدر الصوت، فلم يتمكن من الاستدلال عليه، وخاصة أن الصوت قد توقف فجأة..

وعاد إلى نهلة ورحاب يطمئنها.. إلى أن الصوت ربما كان صادراً من أحد بيوت الجيران الملاصقة للبيت، والصوت ينتقل بعيداً في الليل.. وهكذا عاد ونهلة إلى النوم.. بعدما انشغلت رحاب بإرضاع ابنها وجبته الليلية..

لم يتكرر الصوت في الليلة التالية، بل ظل السكون يعم البيت لأسبوع آخر، ولكن في إحدى ليالي نيسان الدافئة..

- حازم.. أتسمع؟

- ماذا يا نهلة؟

- الصوت من جديد.. إنه يئن كأنه يتعرض لعذاب هائل..

- معك حق.. الصوت يبدو من داخل البيت، ولكن صدقيني ليس من هنا

- كأنه على بعد أمتار منا..

- عودي إلى النوم لا تقلقي..

- ولكنه صوت مزعج مؤلم.. يتسرب في الليل فيخلق الرعب والتشاؤم.. لماذا لا يكون صادراً من القبو يا حازم؟

- القبو؟ قال صاحب البيت إنه مغلق منذ زمن بعيد، وهو مسلح بباب حديدي من الصعب اقتحامه...

- سنحضر عاملاً بعدته، ليصهر أطرافه، يجب أن نكتشف سر القبو.. ربما كان هو مصدر هذه الأصوات؟

- ماذا تقولين؟

- أرجوك فكر بموضوع القبو.. وحين أتأكد من أنه خال من الألغاز.. سوف أعيش مطمئنة، لا أبالي بشيء هنا، حتى لو تكاثرت الأصوات الغامضة في الليل..

- ادخلي يا رحاب.. لسنا نائمين..

- أتسمعان؟

- إنه صوت ينطلق من أحد بيوت الجيران المتلاصقة كما قلت لك، لا تخافي من المستحيل أن يصدر من داخل البيت..

- ولكنه يبدو فعلاً من داخل البيت..

- الصوت ينتقل بسهولة وتقترب المسافات في الليل..

- يمكن.. ألست خائفة يا نهلة؟

- لا يا رحاب إن أردت سآتي وأنام في غرفتك..

- لا.. لا داعي.. لست على هذه الدرجة من الضعف..

- هل استيقظ الصغير؟

- نعم.. أرضعته وجبته فنام.. ولكن الصوت الغامض منع عني النوم..

- لا تخافي يا أختاه.. كل شيء على ما يرام..

- حسناً.. تصبحان على خير..

- متأكدة أنها خائفة، ما رأيك لو أنام معها الساعات المتبقية من الليل

- كما تشائين..

وفي اليوم التالي أحضر حازم أحد عمال الحدادة في الحي، وطلب منه أن يعالج باب القبو الحديدي.. وقد حاول الرجل جهده أن يفتح الباب بالطريقة العادية بعد أن كسر القفل لكن

الباب ظل مستعصياً عن الفتح، بدا لحازم أن خلف الباب ركاماً من الحجارة، منعه من التحرك، وقد طلب من الحداد أن يحاول خلعه من أساسه بأية طريقة.. وعمل الرجل عدة ساعات، حتى استطاع نزع الباب الضخم بمعونة أحد مساعديه، ورأى حازم أن هناك أكواماً من الحجارة والأثاث المبعثر خلفه، فأحضر بضعة عمال وكلفهم بإزالة هذه الأكوام وفتح الطريق إلى القبو..

- تبدو العملية صعبة يا أستاذ، كأننا نهدم جداراً من الإسمنت

- أمعقول؟ ومن الذي بنى هذا الجدار من الداخل..؟ يبدو الأمر محيراً..

- على كل حال، لن نستطيع اليوم إكمال العمل، سنعود في الصباح الباكر..

- كما تشاؤون.. إنه قبو مليء بالجرذان، يبدو أن أحدها قد تسرب إلى داخل البيت..

- سأضع الباب من جديد، وأسنده إلى الركام لأمنع الجرذان من الخروج..

- هذا أفضل.. أما الجرذ الذي تسلل فسأتكفل بقتله قبل أن يخرب أثاث البيت ويخيف من فيه..

- هيا يا رجال.. أوقفوا العمل.. ولنغلق الباب جيداً..

في تلك الليلة وصلت التأوهات إلى حازم ورحاب ونهلة، كانت تأوهات واضحة، أيقن حازم من وضوحها أن القبو هو مصدرها.

وهكذا بدأ القلق يتسرب إليه كلما ازداد اقتراباً من كشف السرّ..

- كان حازم يشعر أنه يقترب من حل اللغز الذي سبب رعباً مستمراً وإشاعات عن البيت المسكون بالأشباح والكائنات الخفيّة..

- أتسمع يا حازم؟

- إنه ذلك الجرذ اللعين، لن أهدأ حتى أقتله..

- ربما تسرب غيره أيضاً؟

- سألاحقه وأقتله.. رأيته يدخل إلى البيت ولم أر غيره.. وأنا متأكد من ذلك، استطاع العمال إغلاق الباب من جديد..

-أتسمع يا حازم؟

- إنها واضحة يا نهلة، بالتأكيد هي صادرة عن القبو، وسنحل لغزها غداً.. وستتعرف بذلك المسكين المحبوس هناك..

- أتعتقد أن شخصاً محبوساً في قبونا؟

- نعم.. هه.. انتبهي يا نهلة أغلقي الباب

- إنه يتجه نحو السرير..

- لن يصل إليه (ضربات) أيها الوغد..

- أوه يا حازم.. لماذا تحصره هكذا؟

- سأقتله في الخارج حتى لا ألوث المكان بدمه.. هه.. سأقبض عليه بهذه الخرقة.. لن أغيب طويلاً

- أمعقول أن يكون هناك كائن حيّ في القبو، مسجون كل هذه السنوات؟ إنه أمر غاية في الغرابة..

- تخلصت منه، وسنجد حلاً لتكاثر الجرذان في القبو

- بعد أن نعرف سبب تلك الآهات المنطلقة من هناك، لا أكاد أتصور إنساناً يعيش هناك مع تلك الحيوانات الكريهة، من أين يأكل ومن أين يؤمن استمرارية الحياة ما دام القبو مغلقاً بهذه الطريقة المخيفة..

- أمر محيّر، ولكن سيتكشف كل شيء غداً إن شاء الله.. هل نامت رحاب وابنها؟

- نعم.. لم أسمع لها صوتاً..

- يجب أن تنام بسرعة قبل أن يعلو صوت الأنين..

- إنه ذو وتيرة واحدة لن تتغير.. فعلاً أشعر بالتعب ويجب أن تنام باكراً، قد يحضر العمال مبكرين في الصباح

تقلب حازم في فراشه يحاول النوم وقد عاد الأنين من جديد يطرق سمعه، وكانت زوجته قد غفت إلى جانبه.. وعلى الرغم من قلقه وحيرته، كان يشعر أن حلّ اللغز يزداد اقتراباً منه.. وأخيراً غفا..

صحا وهو يشعر بألم فظيع في كتفه.. يا إلهي كنت أحلم.. ما الذي يؤلمني هكذا.. إنه جرذ لعين، من أين دخل؟ الباب مفتوح يا إلهي.. الحمد لله ما زالت نهلة نائمة، هه سأطرده إلى خارج الغرفة.. ولكن من فتح الباب، أغلقته بنفسي..

- حازم.. المنزل ممتلئ بالجرذان، شيء مخيف، كادت تقرض غطاء الصغير وتصل إليه لو لم أنتبه..

- هيّا نخرج ونغلق الباب كيف خرجت تلك الحيوانات اللعينة؟

- أنا خائفة، رأيت نحو عشرة منها..

- لا تخافي.. سأعالج الأمر

- ماذا ستفعل؟

- سأستخدم البندقية الصغيرة، بندقية (حبة الخردق) إنها ذات صوت خفيف، وشديد الفاعلية.. هيا سأخرج الجرذان من غرفتك ولتدخلي وتغلقيها جيداً..

بصعوبة كبيرة تمكن حازم من دفع الجرذان صوب القبو بعد أن قتل العديد منها.. كان الباب الحديدي منزاحاً قليلاً، حيث سمحت الفتحة بمرور العديد من الجرذان..

وقد تمكن بجهد كبير من إعادة الباب إلى سابق عهده.. ووضع خلفه بعض قطع الأثاث.. وعاد يفتش عن جرذان أخرى متسربة ولم يشعر بالليل ينقضي، إلا مع صوت المؤذن يعلن من الجامع القريب عن صلاة الصبح..

عاد حازم إلى غرفته مع نهلة، بعد أن تأكد أنه نظف كل آثار الجرذان الغازية، كان متعباً مرهقاً، وقد بدأت تصل إليه أصوات الحركة في الأزقة القريبة من البيت..

وحين أسند رأسه إلى الوسادة غفا خلال لحظات، ولم يصح إلا في نحو التاسعة، على صوت نهلة توقظه وتخبره أن العمال قد جاؤوا لإتمام فتح باب القبو...

قالت نهلة: أنا خائفة يا حازم..

- اجلسي مع رحاب في غرفتها.. ولا داعي لأن تراقبي ما يحدث..

- ولكني أريد أن أرى كل شيء..

- قد تشعر رحاب بالخوف وحدها..

- أرجوك يا حازم اتركني أراقب ما يحدث..

- ربما لم يكن المنظر مريحاً..

- لا يهم..

- كما تشائين

- نهلة أين أنت؟

- اذهبي إليها قد تحتاج إليك في شيء..

- حسناً ولكن لن أتأخر كثيراً.. سأرى ما يحدث، وربما اصطحبتها معي..

- كما تشائين..

كان العمال يتابعون الحفر.. قد تخرج الجرذان من جديد..

- سأوجه إليها لسان اللهب هذا.. لن أدعها تخرج..

- مازالت الكتلة كبيرة تحتاج إلى ساعة على الأقل قبل أن ينكشف أمامنا مدخل القبو..

- إنه عمل قاموا به من داخل القبو..

- ماذا تقصد؟

- كل هذا الركام والأثاث مجمع من داخل القبو.. وليس من خارجه

- ربما كان مسكوناً بالبشر من قبل؟

- ممكن يا أستاذ حازم..

- هيا يا شباب.. يجب أن نزيل الركام بسرعة..

- يبدو قبواً كبير المساحة..

- بالطبع لأن البيت كبير المساحة أيضاً..

- سمعوا أصوات تأوهات واضحة..

- أحدهم يتألم في الداخل.. أهذه هي التأوهات التي حكيت عنها يا أستاذ حازم..

- نعم.. نعم..

- سنزيل الركام ونصل إلى مصدر التأوهات..

ورغم الصعوبة التي عاناها الرجال في عملهم، فقد استطاعوا أن يزيلوا الركام من مدخل القبو..

ووصلهم صوت الأنين واضحاً تماماً.. فحملوا مشاعلهم وبدؤوا يتقدمون في القبو.. كانت الروائح العفنة قد وصلت إليهم، كما وصلت إليهم أصوات الجرذان المتحركة الهاربة..

- ألديك بندقية يا أستاذ حازم؟

- إنها بندقية صغيرة، طلقاتها حبّات من الخردق..

- لا بأس قد تفيدنا..

- سأحضرها بسرعة إذن..

رأى نهلة ورحاب تتجهان إلى مدخل القبو: إلى أين تتجهين يا نهلة مع رحاب؟ أتعتقدين أن الأمر لا يعدو أن يكون لعبة مسلية؟.. إنه خطر خطر تماماً..

-وإلى أين أنت ذاهب؟ لتحضر نجدة؟

- سأحضر البندقية الصغيرة... عودي أنت ورحاب إلى داخل البيت..

- ربما كان في الأمر ما يقلق..

- هناك أكثر من أربعة عمال إضافة إلى حازم.. هل سيقاتل هؤلاء الجن أو العفاريت؟.. إنه أمر غير منطقي، الإحساس بالخوف هكذا..

- إنه قبو مجهول غامض، لا نعرف عنه شيئاً.. تخرج منه تلك الآهات

- سنرى من الذي يطلق تلك الآهات، لابدّ أنه شخص سجن بسبب ما هنا.. إنه الحل الأكثر منطقية للغز القبو..

- تريدان مشاهدة كل شيء.. لا بأس.. ولكن لن أتحمل نتيجة ما يحدث..

- لا تقلق من هذه الناحية..

عاد حازم إلى العمال سريعاً:

- أحضرت البندقية؟.. عظيم هيا نتقدم من جديد يا رجال..

- الغرف موزعة على الجانبين، إنها مغلقة، الغبار يبدو مكدساً في كل مكان..

- هل هي غرف مغلقة بالمفتاح؟

- هكذا يبدو..

- ربما كان الصدأ هو الذي يمنع من فتحها..

- ممكن.. سأحاول أن أدفع أحدها..

انفتح الباب ولم يظهر شيء في الداخل..

- يجب أن نفتح الأبواب واحداً واحداً..

- يا إلهي: إننا نقترب من مكان الصوت..

كان الصوت ينبعث من خلف الجدار..

قال حازم: إنه ليس جداراً صلباً.. يمكنكم هدمه إنه تابع للقبو..

وبدأت المطارق تضرب الجدار حتى انهار..

- كان هناك رجل ممدد على الأرض.. يتأوه.. بدا لهم متقدماً في السن، وحوله القاذورات تختلط بطعام يبدو طازجاً..

- انظر يا حازم، إنها غرفة مغلقة تماماً، وليس سوى هذه الفتحة قرب السقف..

- إنها تطل على الجيران.. يا إلهي، هناك من يلقي إليه الطعام والشراب منها..

- إنها إحدى غرف القبو الملاصقة للبيت المجاور كما يبدو.. سدّ بابها من جهة القبو فبدت أشبه بقبر.. وليس سوى هذه الفتحة..

من فعل هذا؟ لابد أن أعرف..

- سأحضر لك سلماً يا أستاذ حازم..

جاءت نهلة لترى الاكتشاف.. أمسكت بحازم:

- أرجوك لا تصعد السلم، دع أحداً من الرجال يقوم بذلك.. الأمر يحتاج لتحقيق موسع، يجب أن أبلغ الشرطة..

- معك حق.. ويجب أن يتم هذا بسرعة.. أتريد أن أطل على تلك الفتحة يا أستاذ حازم..

- قد تكون عملية خطرة؟..

سمعوا صوت همسات من الخارج.. قال حازم: اصمتوا جميعاً... كأنني أسمع أصواتاً..

- ربما جاء من يقدم له الطعام.. اخرجوا جميعاً بسرعة.. وأطفئوا الأنوار..

سمعوا صوت امرأة:

- ألم تمت بعد؟ خذ طعامك اليوم ليته يسمح لي بإغلاق هذه الفتحة عليك.. من الأفضل أن تموت، أنت تتعذب دون فائدة.. لماذا لا تنهي حياتك؟

صرخ بها رجل من الداخل؟

- عودي يا امرأة بسرعة.. ألقي إليه الطعام وزجاجة الماء الصغيرة واتركيه..

- إنه شبه فاقد الوعي، إنه يتأوه ولكن دون وعي..

- اتركيه قلت لك.؟

- طيب.. طيب كما تشاء..

قال أحد العمال: أرأيت يا أستاذ حازم.. إنها عملية مقصودة، إنها جريمة مدبرة ضد هذا الشخص المسكين؟ ترى من تكون تلك المرأة؟ ومن يكون ذلك الرجل؟

- ومن يكون هذا الكهل المسكين الذي يبدو أشبه بميت يسبح في بحر من القذارة..

- يجب إخراجه من هنا.. لو وصلت إليه الجرذان لأنهته تماماً

- كيف ستخرجه من هنا، من الأفضل لو نلفه بغطاء، أو كيس كبير من القماش.. ثم نسلمه للمشفى.. حيث ينظفونه ويفحصونه

- أرجوكم أبقوا هنا الآن.. يجب إخبار الشرطة أولاً..

قال عامل آخر: معك حق.. هل أذهب وأستدعي الشرطة..

هدأه حازم: لا داعي لذلك، سأعلمهم بالهاتف، سأوصيهم بأن يأتوا بهدوء حتى لا يشعر الجيران بهم.. وحتى لا يشعر أصحاب العلاقة الذين ارتكبوا هذه الجريمة بهم أيضاً..

- معك حق..

وأحضر حازم الشرطة بهدوء إلى المنزل حيث عاينوا القبو، وفهموا ما حدث كما شرح لهم حازم بمساعدة العمال ثم أخرجوا الكهل المسكين الذي لم يكن في وعيه، لتسلميه إلى المشفى لدراسة حالته، ثم أطل أحد رجال الشرطة بواسطة السلم على الفتحة التي يلقى منها الطعام والشراب..

قال الضابط:

- انتبه وأنت تصعد السلم، قد يشعرون بوجودك..

- سأفعل يا سيدي.. إنه يطلّ على.. آه.. ولكن الشرطي تلقى ضربة قوية أوقعته أرضاً..

أعطى الضابط أمره: اذهبوا بسرعة واضربوا نطاقاً حول المنطقة.. واستعينوا بمفارز جديدة...

- سنفعل يا سيدي.. هل أنت بخير يا أخي؟

- ظهري يؤلمني آه.. لا أستطيع أن أتحرك..

- هناك دماء تنزف من فمك وأنفك..

- كانت ضربة بعصا سميكة، آه.. أشعر بألم فظيع..

قال الضابط: خذوه إلى المشفى القريب أيضاً..

- حاضر يا سيدي..

جهز الضابط السلم، سأله حازم:

- ماذا تريد أن تفعل يا سيادة المقدم..

- أريد أن أطلّ على الفتحة أيضاً

- انتبه لنفسك..

- لا تخف..

نبه حازم نهلة: إنه يضع قبعته على العصا.. أترين؟

قالت نهلة: إنها طريقة ذكية..

- لقد ضربوا العصا.. والقبعة..

- إنه يطل برأسه بسرعة ويعود..

قال الضابط وهو يهبط السلم:

- لن أنسى تلك الوجوه طوال حياتي..

- أرأيتهم يا سيادة المقدم؟

- امرأة بأنف معقوف، ورجل قصير القامة، أصلع الرأس.. هيا يا أستاذ حازم أخلوا القبو..

- ومشكلة الجرذان يا سيدي؟

- ستتسلى ببقايا الطعام هنا، حتى تحضر لها السموم القاتلة التي تخلصك منها..

- معك حق..

ولم يجد الضابط ورجاله صعوبة في الإمساك بالمرأة والرجل اللذين حاولا الهرب.. وساقهما رجال الأمن للتحقيق، وحضر حازم جزءاً من التحقيق بناء على طلبه..

- هه لم تقل لنا ما صلتك بذلك الكهل المسكين؟

- لا أعرف عنه شيئاً..

- مصر على الإنكار؟ هذا لن يفيدك، ستتوصل إلى الحقيقة بأية وسيلة..

- قلت لك لا أعرف شيئاً لا أعرف شيئاً (يبكي)

قال الضابط بسخرية: تتظاهر بالبراءة؟ خذه من هنا الآن؟ وأحضر تلك المرأة..

- حاضر يا سيدي.. هيّا تحرك..

- إنه مصر على الإنكار..

- لن ينفعه الإنكار شيئاً.. ربما باحت المرأة بكل شيء.. لدينا طرقنا الخاصة الأخرى، يا أستاذ حازم.

- أنت من رآهما وأنت متأكد من تورطهما..

- لن أنس وجهيهما ما حييت..

وأحضرت الشرطة المرأة:

قال الضابط: اتركها هنا.. وفك قيودها..

كانت تبكي - لماذا هذه المعاملة؟ لست مجرمة يا سيدي..

- لن أتعبك إن حكيت لنا عن الصلة التي تربطك بذلك الكهل..

عادت تبكي - لا أعرف عنه شيئاً.. قلت لكم لا أعرف عنه شيئاً (تبكي)

- كنت تلقين له الطعام من الثغرة العالية.. رأيتك بنفسي.. لماذا تنكرين؟

- أنا؟ أية ثغرة؟ لا أعرف شيئاً عن الموضوع..

قال الضابط بعصبية: لن يفيدك الإنكار.. لآخر مرة، قولي لي ما هي الصلة التي تربط بينك وبين ذلك الكهل؟

- آه من حظي التعس.. لماذا تلفقون لي هذه التهمة، أنا لا أعرف أحداً صدقني يا سيدي.. لا أعلم عن أي موضوع تتحدث..

- قيدها وخذها إلى السجن.. سترين عواقب هذا الإنكار..

أخذت تصرخ والشرطة تقودها إلى السجن: أنا بريئة.. بريئة..

- أمعقول أن تصرّ وزوجها على الإنكار بهذه القوة..

- لأنهما يعلمان أن ذلك الكهل خارج دائرة الوعي..

- ولكن الفتحة تطل على فسحة الدار عندهما.. إنه دليل مهم ضدّهما

- اعتقدتها ستنهار فوراً وتحكي كل شيء.. على كل حال لم تستخدم بعد أساليب التحقيق الأخرى..

- ما رأيك يا سيادة المقدم لو زرنا المستشفى لترى حالة ذلك الكهل..

- لا بأس كنت أفكر بذلك..

وفي المشفى: لديه نقص كبير في الفيتامينات والعناصر المعدنية الضرورية، أعتقد أننا خلال ساعات سنعيد إليه وعيه..

- أما زال في غيبوبة؟

- استيقظ قبل نحو الساعة، فتح عينيه مستغرباً ثم عاد لحالة السبات والتأوهات المستمرة..

- يبدو مصفر الوجه أشبه بالموتى..

- إنه مصاب بعدة أمراض، لا يستطيع أن يحرك رجليه، صدره منخور بالرطوبة والبرد.. أعتقد أنه وإن صحا من سباته، لن يعيش طويلاً.. (تأوهات)

- موعد الحقنة يا دكتور..

- فرغيها في السيروم.. إنه يتقلب الآن..

فتح الرجل عينيه ساهماً:

- أنت بخير.. لا تخف..

- أريد أن أموت.. أريد أن أموت.. اقتلني يا عارف.. أرجوك أريد أن أموت..

- إنه يهذي، لم يستوعب بعد أنه في مكان آمن، يعتقد أنه يحلم

- آه.. أريد أن أموت..

أخذ يسعل بقوة حتى كاد يختنق..

- إنه يبصق دماً يا دكتور..

- ساعديه يا آنسة.. يريد أن يرفع رأسه.. إنه ينظر إلينا باستغراب..

- استغرابه يتحول إلى خوف شديد، إنه يغمض عينيه.. كأنه فقد ا لوعي من جديد..

- لابأس.. إنه يتقدم نحو الوعي الكلي.. قد يعود إليه خلال دقائق

- إذن سأبقى هنا قرب سريره..

- تريد استجوابه؟

- ليس استجواباً، إنه محاولة فهم مسببات وضعه..

- ما رأيك لو تحضر المتهم والمتهمة إلى هنا حين يستيقظ..

- بالطبع سأحضرهما.. إن ذلك مهم جداً في إثبات التهمة عليهما..

- النبض يهبط عن معدله (صوت ضربات قلبه تخف قليلاً)

- إنه خلل في كمية السائل التي تدخل عن طريق السيروم.. النقاط سريعة أكثر من اللازم..

- لا بأس سيعود إلى طبيعته.. خففها قليلاً..

وفي لحظة عودته لوعيه، وقد أعطاه الطبيب مقويات لتساعده على التماسك بدأ الضابط يلقي عليه أسئلته، والكهل يبكي ويجيبه، كأنه يتحدث عن كابوس مخيف..

أتى يزور البلاد قبل (١٢) عاماً، وكانت أمه ما زالت حية، استقبله أخوه عارف وزوجته استقبالاً كبيراً وطمعا في أن يقدم لهما المال اللازم لعلاج حالة العقم التي تشتكي منها الزوجة..

ولم يتردد في منحهما المال اللازم.. ولكن هذا المال نفذ بسرعة وهما يتنقلان من طبيب إلى آخر.. حتى نصحها طبيب كهل بعدم البحث عن علاج، لأن حالة الزوجة مستحيلة الشفاء.. هناك

نقص في جهازها الأنثوي يمنعها من الإنجاب، وبدأا يخططان للقيام بعمل استنزاف ثروة الأخ المهاجر الذي اغترب طويلاً، وعاد وهو في سن يقارب الخمسين طامعاً في الزواج والاستقرار نتيجة إلحاح والدته..

«لم أقصر في شيء، قدمت لهما الكثير، وعرفت أنه من المستحيل علي أن أهنأ بحياة، في بيت يجمعني معهما.. وقد قاست والدتي الكثير، وهي تحاول أن تجعل عارفاً يخفف من جشعه.. ولكن زوجته كانت تسيطر عليه سيطرة مطلقة.. وفي أحد الأيام عدت للبيت فوجدت والدتي متوفاة من القهر.. كنت قد أنهيت بيع البيت المجاور الذي يشبه قصراً صغيراً من أجل إعطائهما ثمنه للسماح لي بالهرب من البلاد والعودة إلى مغتربي».

- بالطبع.. حزنت كثيراً على والدتك؟..

«آه.. دخل إلى قلبي الشك بأن زوجة عارف هي التي سببت موت والدتي، وقد فاجأتها بهذا الكلام.. فارتمت عليّ كوحش مفترس تضربني بكل ما حولها من أدوات.. ولما عدت لوعيي وجدت نفسي في غرفة داخل القبو.. وبدأت رحلتي مع العذاب»..

- ماذا كانا يريدان منك؟

«أن أعطيهما كل شيء.. وخفت أن يقتلاني بعد أن أسلمهما كل شيء فبدأت بالمماطلة، ولم يعرفا أين أخبئ المال، ورغم كل الحصار الذي عانيته، رفضت أن أرضخ لهما».

- وكيف أخفياك في القبو؟

أخذ يتنهد ثم يسعل بقوة: «دخلا القبو من الباب الحديدي وكنت أحتفظ بمفتاح احتياطي للبيت، وفتحا ثغرة هنا ثم بنى عارف جداراً مكان الباب في الغرفة التي حبساني فيها وتركا الثغرة المطلة على بيتنا القديم.. وحتى يمنعا أحداً من اكتشافي وضعوا الكثير من الحجارة والرمال والإسمنت خلف الباب الحديدي ونفذا من الثغرة إلى البيت عن طريق سلّم أحضراه ثم نقلاه إلى الطرف الآخر..»

- عمل أشبه بجريمة مرتبة بطريقة مخيفة..

- وهذا السبب الذي جعل الناس يبتعدون عن السكن في البيت بسبب الآهات المستمرة، وحركة السجين اليائسة التي لم تكن وقد صلت إلى الانهيار التام..

(حاولت المقاومة، ولكنهما بدأا بتجويعي.. آه يا إلهي)

- حالته تسوء.. يحتاج إلى الراحة الآن..

- لا بأس، سأحضرهما مساءً لمقابلته..

ورغم الرفض الذي أبدياه في البداية، فإنهما انهارا عندما رأيا الكهل، وهو يحدق بهما بنظرات يائسة فيها الاحتقار والازدراء إلى جانب الغضب والعتاب..

وحلّ حازم لغز البيت المهجور.. وظلّ يزور الكهل الذي ساءت حالته رغم كل المحاولات الطبية.. حتى توفي مع بداية عام ١٩٩٦..



دار الفكر

آفاق معرفة متجددة



- **أسست** عام ١٩٥٧م (١٣٧٦هـ).
- **رسالتها:**
  - تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
  - كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار.
  - تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
  - مد الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي.
  - احترام حقوق الملكية الفكرية، والدعوة إلى احترامها.
- **منهاجها:**
  - تنطلق من التراث جذوراً تؤسس عليها، وتبني فوقها دون أن تقف عندها، وتطوف حولها.
  - تختار منشوراتها بمعايير الإبداع، والعلم، والحاجة، والمستقبل، وتنبذ التقليد والتكرار وما فات أوانه.
  - تعتني بثقافة الكبار، وترنو لتأهيل الصغار لبناء مجتمع قارئ.
  - تخضع جميع أعمالها لتقييم علمي وتربوي ولغوي وفق دليل ومنهج خاص بها.
  - تعد خططها وبرامجها للنشر، وتعلن عنها: شهرياً، وفصلياً، وسنوياً، ولأمداد أطول.
  - تستعين بنخبة من المفكرين إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير، والأبحاث، والترجمة.
- **خدماتها ونشاطاتها:**
  - نادي القارئ النهم (الأول من نوعه في الوطن العربي)
  - تمنح سنوياً جوائزها للإبداع والنقد الأدبي، وتكرم مؤلفيها وقراءها.
- **ريادة في مجال النشر الألكتروني:**
  - أول موقع متجدد بالعربية لناشر عربيٍ على الإنترنت: **www.fikr.com**
  - تسهم بفعالية في موقع (فرات) لتجارة الكتب والبرامج الألكترونية: **www.furat.com**
  - موقع تفاعلي رائد للأطفال: عالم زمزم: **www.zamzamworld.com**
  - موقع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: **www.bouti.com**
  - موقع الدكتور وهبة الزحيلي: **www.zuhayli.com**
  - موقع اللجنة العربية لحماية الملكية الفكرية: **www.arabpip.com**
- **حازت على جائزة أفضل ناشر عربي للعام ٢٠٠٢، من الهيئة المصرية العامة للكتاب**
- **منشوراتها:** تجاوزت حتى عام ٢٠٠٣ (١٧٥٠) عنواناً، تغطي سائر فروع المعرفة


دمشق - سورية - ص.ب: ٩٦٢ - هاتف: ٢٢١١١٦٦ - فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com/



سلسلة قصص وروايات شيقة، بقلم أحد أهم رواد الخيال العلمي العرب، الدكتور طالب عمران، تأخذ القارئ إلى عوالم، يمتزج فيها الواقع بالخيال، والعلم بالقوى الخفيّة للإنسان، والمعقول بغير المألوف؛ وذلك لاستخلاص فوائد علميّة وأدبيّة وتربوية، عبر أحداث مثيرة ولغة ممتعة وحبكة ذكيّة، تدفع القارئ إلى التفكير والتحليق مع الكاتب.

والمؤلف ينطلق في بناء قصصه ورواياته العلمية الخياليّة على أسس واقعيّة لها علاقة بالمكان، ومع ظواهر مدهشة في حياتنا يفسّرها العلم، وتوقعات مبنيّة على المنطق العلمي لمستقبل الإنسان على هذا الكوكب.. فيجعل كل ذلك منها مادة قيمة، تعود بالنفع والمتعة على القارئ..

ISBN 1-59239-203-2

